أحاديث روحية

أربع وعشرون حديثاً
للمنفعة الروحية

البار بطرس الدمشقي
عن كتاب الفيلوكاليا

إعداد
الأرشمندريت د. ميلاتيوس خليل بصل
ترتيب ونشر
"أبناء التجلي"
رام الله

تريودي 2007

تمهيد

هذه الأحاديث عددها أربعة وعشرون حديثاً قد وضعت بحسب تسلسل الأبجدية اليونانية، وكل حديث يبتدئ بحرف يوناني. مما أعطاها اسماً الأبجدية الروحية. وقد شملها كتاب "الفيلوكاليا" الروحي، وذكر كاتبها البار بطرس الدمشقي.
قد حاولنا في سردنا لهذه الأحاديث أن نوازي الأحرف العربية بأحرف الأبجدية اليونانية قدر الامكان، مع أننا لم نستطع وضع الحرف الأبجدي بتسلسل بداية الحدث، فلم يعط الحرف العربي بداية كلمة مناسبة لبداية الحديث كما رتب أن تكون بداية كل حديث بحرب يوناني.
ومع أن تسلسل الأحاديث بالأبجدية ليس له أي معنى إلا المعنى الشعري والبلاغي، مما شجعنا أن نضع هذه الأحاديث بين أيدي المؤمنين للمنفعة الروحية، سائلين المولى عز وجل أن يهبنا جميعاً الرفعة الروحية والخلاص.

صلوا لأجلي
الأرشمندريت د. ميلاتيوس بصل
الرئيس الروحي لرام الله واللواء

لمحة تاريخية

يرى نيقوذيموس الهاجيوريتي أن أبينا البار بطرس الدمشقي هو نفسه بطرس أسقف دمشق، المتوفى شهيداً، في شبه الجزيرة العربية، وقد عاش في عهد الملك قسطنطين الزبلي سنة 775، وقد مارس حياة النسك والزهد وتقشف رهباني شديد، حتى أنه لم يكن يملك كتاباً خاصاً به، وكان يستعير الكتب من آخرين (نقصد كتاب العهد القديم وكتاب العهد الجديد، ومؤلفات كبار معلمي الكنيسة وآباء اليقظة والروحانية) أظهر عطشاً شديداً للكتب الروحية ودرسها ليلاً ونهاراً.
أثمر البار بطرس كثيراً بنسكه أبان حياته، وبومته الاستشهادي أثمر أكثر وأكثر، وقد نال إكليل الشهادة لأنه حارب هرطقة المانية المنتشرة آنذاك في العربية، وقد قطع لسانه من قبل وليد الحاكم ونفي إلى أعماق العربية الصحراوية وقد أنهى حياته واعظاً فصيحاً وخادماً للكلمة، وقد خلف وراءه كتابه الشهير الروحي القيم والجزيل الثمن.
يذكره السنكسار في 9 شباط.

الأحرف الأبجدية

أ ، ب ، ج ، د ، هــ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ،
ك ، ل ، م ، ن ، س ، ع ، ف ، ص ، ق ، ر ،
ش، ت ، ث ، خ
(ذ ، ض ، غ ، ظ)

α , β , γ , δ , ε , ζ , η , θ , ι , κ ,
λ , μ , ν , ξ , ο , π , ρ , σ , τ , υ ,
φ , χ , ψ , ω

Α , Β , Γ , Δ , Ε , Ζ , Η , Θ , Ι , Κ ,
Λ , Μ , Ν , Ξ , Ο , Π , Ρ , Σ , Τ , Υ ,
Φ , Χ , Ψ , Ω

الحديث الأول

إليك المدخل مع حرف الألف (α)، يتضمَّن الحكمة الروحيّة. فكما أن الألف، بين الأحرف كلها، هي البداية في كل لسان، هذه الحكمة هي أيضاً، بين الفضائل كلها، بدايتها ونهايتها. ولكن كما أن الأبجدية هي تعليم ابتدائي بدونه لا يمكن أن نتلقى الدرس الأول، كذلك بداية المعرفة زهيدة جداً، ولكن بدونها لا يمكن البتة أن نجد الفضيلة. والآن، أيها الأب، بارك البداية.

في كل اللغات المكتوبة، الحرف الأول هو الألف، مع أن بعض الألسنة يجهلها. كذلك بداية الفضائل كلها هي الحكمة الروحية، وهي نهايتها أيضاً. فإنّه إذا لم تَقْرُب الحكمة من الذهن، لا يستطيع الإنسان أن يأتي شيئاً صالحاً: إنّه لا يسمع البتة شيئاً عن الصلاح؛ ولكن إذا قُدِّر له، بطريقة ما، أن يسمع شيئاً عن ذلك، فالحكمة هناك.

الأبجدية تعليم للأطفال، ولكن بدونها لا سبيل إلى اكتشاف حكمة الدروس الأولى. كذلك الأمر بالنسبة إلى بداية المعرفة. إنها شيء زهيد، ولكن بدونها، لا سبيل حقاً إلى اكتشاف الفضيلة. ولذلك أتهيب الكتابة عن الحكمة، وأنا لا أملك من الحكمة شيئاً.

هناك، على ما أظن، سُبُلٌ أربعة تُعِد الذهن للتمكن من الكلام: فإما النعمة الآتية من العلاء بطريقة تفوق الطبيعة، مع ما يرافق ذلك من الغبطة؛ وإما النقاء الناجم من التروّض في حضرة الله، والقادر على أن يعيد النفس إلى جمالها القديم، وإما خبرة التعاليم الدنيوية، عبر التثقف البشري وممارسة الحكمة الدنيوية؛ وإما الخطأ الشيطاني اللعين، يسببه الكبرياء وكيد الأبالسة وانحراف الطبيعة. ولكن الواقع أن لا نصيب لي في شيءٍ من هذا كله. فكيف السبيل إلى الكتابة؟ لا أدري، ولا أعلم كيف يجتذب الإيمان النعمة على يراعك، أنت يا من يجهد في الكتابة أمام الله؛ فذهني ويدي يعوزهما الجدارة والنقاوة، أعرف ذلك بالخبرة؛ وقد أصابني مراراً ويصيبني دائماً أنني كل مرة نويت أن أكتب شيئاً – صدقوني، أيها الآباء! – لم أوفق في أن أرفعه إلى الذهن، قبل أن آخذ القلم. وأحياناً كثيرة، لم أكن لأملك، في البداية، سوى فكرة صغيرة مستوحاة من الكتاب المقدس، أو مما تناهى إلى السمع أو البصر من محسوسات العالم. من هنا كان الذهن ينطلق غالباً؛ وفي

اللحظة التي كنت أتناول فيها القلم وأهم بالعمل، كنت أتبين ما كان علي أن أكتبه؛ ومنذئذٍ كنت أحمل في داخلي ذاك الذي كان يُلجئني إلى الكتابة.
وهكذا أكتب، ما قدرت على ذلك يدي، بلا مانعٍ ولا قلق ولا أي انتظار. فما يقذفه الله في قلبي المظلم، أدونه بمعزل عن أي فكر آخر؛ ولا احسب أن يكون لدي ما نلته إلاّ بصلاة لم إنسان آخر، بحسب قول يوحنا السلمي، مستشهداً بالرسول: "أي شيء لك لم تنله؟ فإن كنت قد نلته، فلم تباهي كأنك لم تنله" (1 كورنثس 7:4). ولكن ذاك الإنسان، ممن عساه نال ما عنده؟ إن ما يَرِد تلقائياً إلى ذهن المستريحين في الله بعيداً عن كل فكر، إنما هو أمرٌ مَرْضيّ. وهذا ما يقوله القديس اسحق: "كل تأمّل له معنى خاص". ويقول القديس أنطونيوس أيضاً: "كل عمل وكل قول يجب أن يكون لهما شاهد في الكتب المقدسة".
ولذلك أنبري للكتابة، نوعاً ما، كما نطقت أتان بلعام قديماً (عدد 28:22–30)، لا لأُلقي، لا سمح الله، تعليما، بل لأُفْحِم نفسي البائسة، فيهمّ بالعمل، مخجولاً من أقواله، كل من يتكلم ولا يعمل شيئاً، كما يقول يوحنا السلمي: من يدري؟ أفيكون لي من الحياة متسع لأكتب؟ ثم هل بإمكانكم أن تحققوا الأعمال؟ وإنما علينا جميعاً، نحن وأولئك، أن نُقبل على كلا الأمرين، القول والعمل، وكلٌّ بالمقدار الذي يستطيع أن يحققه. فإن حتفنا خفي علينا، ونجهل متى تأتي الآخرة (متى 14:24). ولكن الله الذي يعلم كل شيء سلفاً، يعرف سيرتنا. فله المجد إلى دهر الداهرين. آمين (رومية36:11).

الحديث الثاني

ها إن المقدمة باتت الآن مكتوبة، على نقيض كل توقع. واليك الرسالة الثانية، أعني حرف الباء (β)، والحديث الثاني. وسوف نذكر فيه أن إيماناً يولّد الآخر، وهذا هو الإيمان الكبير، كما يؤكد ذلك الآباء القديسون، أي أساس الفضائل، على حد قول واضعه رسول الرب (كولوسي 23:1). فالإيمان الأول هو الإيمان بلا أعمال الناموس. وأما الآخر فيتم بالأعمال، ويقوم في السكينة، وينجز عبر جهادات كثيرة. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
في معرض البيان عن ماهية الإيمان الذي يقول فيه الرسول إنه أساس الأعمال المصنوعة بحسب الله (كولوسي 23:1؛ يعقوب 22:2)، يقول أبونا القديس اسحق: إننا نلنا هذا الإيمان من المعمودية الإلهية بنعمة المسيح، لا من الأعمال (غلاطية 2:3). فالنعمة هي التي تولد المخافة المرتبطة بالإيمان، ومن المخافة ينجم حفظ الوصايا والصبر في التجارب، كما يقول القديس مكسيموس. ولكن لا بد من أن نكون قد قمنا بأعمال، ليولد فينا الإيمان الكبير، إيمان المشاهدة، الذي قال فيه الرب: "لو كان لكم من الإيمان قدر حبة خردل (متى 20:17) الخ..." ومفاد ذلك أن الإيمان الشائع عند الأرثوذكسيين – أي المعتقد الصحيح في شأن الله وخلائقه العقلية والحسية. كما ورثناه، بنعمة الله من الكنيسة المقدسة الجامعة – هو غير إيمان المشاهدة، أي إيمان المعرفة، الذي لا ينافي البتّة، على كلٍّ، الإيمان الذي ولده، بل بالعكس يدعمه.
فالإيمان الأول تلقيناه بالسماع، وورثناه من والدين أتقياء، ومن معلمي الإيمان الأرثوذكسي. وأما الإيمان الآخر فهو وليد استقامة أمانتنا ومخافتنا للرب (تثنية 12:1) الذي به آمنا. وقد دُعينا إلى حفظ الوصايا بالمخافة، ولذا ابتغينا الدأب في فضائل الجسد – أي السكينة والصوم والسهر المعتدل ومرتل المزامير والصلاة والقراءة واستثارة ذوى الخبرة في كل فكر وكل قول وكل عمل

– فيتنقى الجسد، بمثل هذه الأعمال، من الشهوات المشينة – أي الشره والعهر والأموال العقيمة – ونتعلم أن نقتنع بما لدينا (عبرانيين 5:13)، بحسب قول الرسول.
عندئذ يتلقّى الإنسان القدرة على الثبات في الله، بإعراضه عن الهموم، ويتعلم الوصايا الإلهية من الكتب المقدسة ومن ذوي الخبرة، ويبدأ يزدري الشهوات الثماني الأخرى الممهِّدة للخبث. وإذ يدرك معنى التوعّدات، فهو يخشى الله لا عن خوف فقط، بل لأن الله هو الله، كما يقول القديس نيلوس. وهذه المخافة تفسح المجال لحفظ الوصايا في المعرفة. فبمقدار ما يعاني، في كل وصية، الموت الذي يشتهيه، ينمي معرفته ويعاين ما يتحقق فيه بنعمة المسيح. ويبلغ به الأمر حد الاعتقاد بأن إيمان الأرثوذكسيين عظيم حقاً، ويبدأ يبتغي مرضاة الله، ويصبح لا يرتاب، كما من قبل، من معونة الله، بل يلقي على الله كل همّه (مزمور 23:55) بحسب قول النبي. وكما يقول باسيليوس الكبير: "من رام أن يجوز الإيمان الكبير، عليه ألاّ يهتمّ البتة بحياته أو بموته، بل وإن واجه وحشاً ضارياً أو شاهد ثورات الشياطين والبشر الأردياء، فهو لا يخشى البتة سوءاً، لأنه يعلم أنهم صنع الخالق الأوحد، وأنهم حشمه، وأن ليس لهم على الإنسان من سلطان، إذا لم يسمح الله بذلك؛ ويجب ألاّ نخاف إلاّ من بيده السلطان، كما يقول الرب: "أدلكم على من تخافون (لوقا 5:12). ويتابع قائلاً: "خافوا من له القدرة على أن يلقيكم جسداً ونفساً في جهنم (لوقا 5:12). ويضيف مؤيّداً كلامه: "أقول لكم: أجل، هذا خافوه!" (لوقا 5:12). وبحقّ قوله، لأنه لو كان هناك آخر بيده السلطان، غير الله، لوجب أن نخاف هذا الآخر أيضاً.
ولكن إذا كان الله هو وحده الخالق والسيد للعلويّات والسفليات، فمن يستطيع أن يعمل شيئاً بدونه؟ فإذا قيل إن
ثمة خلائق تملك قدرة بذاتها، أجبت أن القوات الروحية والبشر وحتى الأبالسة يملكون، في الواقع، هذه القدرة. ولكن مصاف الملائكة السماويين والأخيار من بين الناس لا يطيقون إلحاق الأذى بأي من شركائهم في الخدمة، حق ولو أغرق في الشر، بل يرأفون به، ويصلون إلى الله من أجله، كما يقول أثناسيوس الكبير. وأما أشرار الناس ومعلموهم الشياطين الأردياء فهم يتوخّون، ولا شك، الأذى، ولكنهم يعجزون عن ذلك إذا لم نمس، بأعمالنا القبيحة، بحيث يتخلّى الله عنا. فالله، عندئذ، يعاقب الخاطئ بعظيم رحمته، ويفتح له دائماً باب الخلاص، إذا شاء هو نفسه أن يشفى من علّته، صابراً شكوراً. وإلاّ فالحكم الإلهي يحقق الخير لإنسان آخر، لأن الله، في رحمته الكاملة، يُريد الخلاص لجميع الخلائق (1 تيموثاوس 4:2).
الصديقون والقديسون لا تراودهم التجربة إلاّ في أحشاء اللطف الإلهي، لكمال نفوسهم وخزي أعدائهم الشياطين. إن العامل بوصايا المسيح والواقف على هذه الأمور، يؤمن ليس فقط بأن المسيح هو الله وبيده السلطان (فالشياطين أيضاً يعلمون ذلك من أعماله، ويرتعدون) (يعقوب 19:2)، بل بأنه قادر على كل شيء، وأن كل مشيئته حسنه، وأننا بدونه لا نستطيع أن نأتي عملاً حسناً. ومن ثمّ، فمثل هذا الإنسان لا يود أن يعمل شيئاً يناقض إرادة الله، حتى ولو كان ما يعمله هو عين الحياة. فليس هذا ما يجب عليه أن يجده، بل أن إرادة الله هي حياة أبدية (يوحنا 20:15)، وأنها صالحة جداً، حتى وان بدا العمل بمقتضى هذه الحياة، شاقاً في نظر البعض.
ومن ثم ء فأنا الشقيّ شرّ من كافر، لأني لا أروم الجد في العمل لأجل الإيمان الكبير، وأبلغ به مخافة الله ورأس حكمة الروح (أمثال 7:1). ولكني تارة أدنّس عيني النفس فأعصى الشريعة، وتارة تغشاني ظلمة النسيان، فأقع في جهلٍ سحيقٍ، فأصبح لا أدري ما يؤول لخير نفسي، فأهوي في العادة القبيحة وأمسي ضحية المكر. حتى ولو صمّمت العودة إلى الموضع الذي منه هويت، فلا سبيل إلى ذلك، لأن إرادتي سور يفصلني عن الله، على حد قول الآباء، ولا أريد أن أجهد

نفسي في دكِّ هذا السور. فلو كان لي الإيمان، ذاك الإيمان النابع من أعمال التوبة، لتمكنت من القول: "بمعونة إلهي، تسوّرت هذا السور" (مزمور 30:18)، ولما كان الشك يخيفني، عندما أقول لنفسي: "من يردّ علي، عندما أنطلق لأثب فوق أعالي السور؟ أو ليس من هوّةٍ في المنقلب الآخر؟ وإذا تعذر علي اجتياز السور من فوق، أفلا أوشك أن أتحطم ثانية، وأجد نفسي مرة أخرى، بعد كل هذه المشقات، عند أسفل السور؟"
وأبوح لنفسي أيضاً بأمور أخرى كثيرة. ولكن المؤمن بأن الله قريب، وأنه ليس ببعيد (إرميا 23:23)، لا يعتد أبداً بمثل هذه الأشياء، بل سرعان ما يجري إلى الله، مالك كل قدرة وسلطان ولطف وحب للبشر، فيدرك (فيلبي 12:3) (الكمال)، لا كمن يلطم الريح (1 كورنثس 26:9)، بل يسعى، كالسابح، إلى الأمور التي في العلى (كولسي1:3)، تاركاً، في الأسفل، كل رغبة، وممِّماً شطر الإرادة الإلهية، إلى أن يسمع هو أيضاً لغاتٍ جديدةٍ (مرقس 17:16)، أو إلى أن يفهم لغة الأسرار ويحكيها، مرتقياً درجة درجة (مزمور 6:84) من قوة العمل إلى قوة المشاهدة، أو متلقياً، بالأحرى، كل شيء من نعمة المحبة التي يكنها للبشر سيدنا يسوع المسيح الذي له ينبغي كل مجدٍ وإكرام وقدرة إلى دهر الداهرين. آمين

الحديث الثالث

حرف الجيم (γ) هو ثالث حروف الأبجدية. إليك الحديث الثالث في المخافة. مخافة الرب نوعان: المخافة الابتدائية وهي تقصي الخبث عن الإنسان، والمخافة الكاملة وهي تعمل بحرارة. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
الشره هو أولى الشهوات الثماني التي تمهد للخبث. ولكن مخافة الله، وهي الوصية الأولى، تقلب كل شيء. فمن لا يملكها لا يمكنه أن يحور خيوراً أخرى. وكيف يستطيع الإنسان الذي لا يخاف، أن يحفظ الوصية، وهو لم يبلغ المحبة؟ ولكنه ابتدأ بالمخافة، حتى وإن فاته كيف عبرت هذه المخافة الأولى. ويمكن القول أيضاً بأننا أدركنا المحبة عن طريق أخرى. والواقع أننا بتنا مستأسرين لفرحنا الروحي أو لانعدام الشعور فينا، على غرار أولئك الذين يتحدث عنهم القديس أفرام والذين اجتازوا النهر نياماً.
مثل هذا الإنسان يُحب المحسن إليه، مدهوشاً بكثرة الأفضال التي أسبغها الله عليه بنعمته. ولكن إذا اتفق لإنسان أن يفقد الإحساس لتماديه في الترف والجاه، كالغني الذي يتحدث عنه الإنجيل، توهم أن الذين يذوبون مخافة لله ويتعرضون للتجارب إنما يتألمون بسبب خطاياهم. فهو يثور عليهم بلا شفقة، ويَعُدّ نفسه خليقاً بمثل هذه البحبوحة، وهو لا يستحقها، لأنه جعل نفسه غير أهل للحياة الآتية. لقد غشيه الظلام لفرط تعلقه بالزائلات. وربما تهيأ له أنه بلغ المحبة وأنه بسبب ذلك نال من الأفضال أكثر من الآخرين. ولذلك فهو لم يدرك يوماً ما هو لطف الله به. مثل هذا الإنسان لن يجد جواباً في الدينونة، يوم يسمع هذا القول: "لقد استوفيت نعماك في دنياك" (لوقا 25:16). وهذا عين البداهة. فإن كثيراً من الكافرين يوسَعون خيرات ليسوا أهلاً لها. ولكن ما من إنسان فهيم يفكر طبعاً في تمجيدهم أو الزعم بأنهم أهل لأن يحبهم الله ويحبوه، وأنهم بسبب ذلك يزدهرون في هذه الحياة. وهذا هو عين الواقع.

مخافة الله صنفان كالإيمان: فيها بداية، وفيها كمال يتمم طريق البداية. فالذي يخاف العقوبات، يحاف كعبد ويجانب الشر: "بمخافة الرب يحاد عن الشر" (أمثال 27:15). وأيضاً: "أعلّمكم مخافة الرب" (مزمور 12:34). فكل ما أمكننا قوله في شأن بداية المخافة- بحسب القديس ذوروثاوس – يهيب بنا، نحن الخطأة، إلى التوبة، خوفاً من التوعدات، ملتمسين كيف نجد حل ذنوبنا. ولكن المخافة، عندما تحيا فينا، تهدينا طريق الحياة، على حد ما قيل: "جانب الشر واصنع الخير" (مزمور 15:34). فبمقدار ما يناضل إنسان في سبيل الخير، تزداد فيه المخافة، إلى أن تتضح له أدق هفواته التي كان يعدّها لا شيء، عندما كان غارقاً في ظلمات الجهل. عندئذ تصبح المخافة كاملة، ويكتمل الإنسان **بالكآبة**، ولا تبقى له رغبة في الخطيئة؛ ولكنه يخشى عودة الأهواء، ويكتسب الساعة عن طريق المخافة النقية. وقد قيل: "خشية الرب طاهرة ثابتة إلى الأبد" (مزمور 10:19). فالمخافة الأولى ليست نقية، وتنبع من الخطايا.

ولكن الإنسان المنقى، حتى بمعزل عن الخطيئة، لا يخلو من المخافة، لا لأنه واقع في الخطأ، بل لأنه متقلب ونزاع إلى الشر. وكلما ارتقى في اكتساب الفضائل، ازداد في التواضع خوفه؛ وهو في ذلك على صواب. ولا غرو، فكلما ازدادت ثروتنا، ازداد خوفنا من الأذى والعذاب والخزي وسائر ما يمكن أن نتعرض له لو قدر علينا أن نهوي من مثل هذا الشاهق. وأما الفقير فلا يخاف سوءاً سوى سوء المعاملة.

هذا ما نقوله للكاملين والأنقياء نفساً وجسداً؛ ولكن إذا كان هناك من لا يزال في الخطيئة، مهما صَغُرت، فلا يغتر؟ فهو في الضلال – يقول يوحنا السلمي – لأن هذه المخافة ليست نقية، ولا هي تواضع، بل هي اعتراف عبودي وخوف من الوعيد. ومن ثم، فمثل هذا الإنسان بحاجة إلى أن يُقَوِّم فكره ويتعلم معرفة المخافة التي يقيم فيها، وينقي أخطاءه، عن طريق الكآبة القصوى والصبر في الملمات، فيتمكن هكذا من بلوغ المخافة الكاملة، بنعمة المسيح.

المخافة الأولى علامتها ازدراء الخطيئة ومقتها، فنكون، والحالة هذه، مثل إنسان جَرَحَه وحش. وأما المخافة الكاملة فعلامتها حب الفضيلة والخوف من التقلب، لأنه ما من إنسان معصوم من التقلب. فعندما نرى النبي الكبير، داود الملك، ينتحب على زلتين (مزمور 51)، وسليمان يقع في شر وبيل (3 ملوك 11:1-10)، علينا في كل شيء، ونحن في قيد الحياة، أن نخاف من السقوط. وكما يقول الرسول: "من ظن أنه قائم فليحذر السقوط" (1 كورنثس 12:10). وإذا قلنا، مع يوحنا اللاهوتي، إن المحبة تطرد المخافة (1 يوحنا 18:4)، فقولنا صحيح. ولكننا نتكلم، والحالة هذه، عن المخافة الأولى، أي المخافة الابتدائية. وأما المخافة الكاملة، فيقول فيها داود: "طوبى للرجل الذي يتقي الرب ويهوى وصاياه" (مزمور 1:112)، أي: طوبى لمن له شغف كبير بالفضيلة. مثل هذا الإنسان يقيم في نظام الابن، لأنه في كل شيء يتصرف لا خوفاً من العقوبات، بل بدافع المحبة التي تطرد المخافة (1 يوحنا 18:4).

اجعل إذن هواك في الوصايا، ولكن لا تنفذها كعبد، عن اضطرار وخوف من العقوبات، عسانا ننفذ منها بنعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبته للبشر، الذي له ينبغي كل مجد وكرام وسجود إلى دهر الداهرين. آمين

الحديث الرابع

إليك الحديث الرابع، وهو يتناول موضوع التقوى، ورمزه حرف الدال (δ). وفيه كلام عن القناعة – أولى الفضائل الثماني المناقضة للشهوات الثماني – وعن العفة؛ فكلتاهما من أعمال التقوى. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

من البديهي أن التقوى اسم لأشكال وأنماط كثيرة، كالفلسفة الدنيوية. فكما أن الدروس العشرة، متى أنجزت، دعيت فلسفة، وكما أن واحداً أو اثنين من هذه الدروس، لا يسوغ أن تحمل هذا الاسم، بل التسمية محصورة في العشرة، كذلك التقوى ليست اسما لفضيلة واحدة بل تشمل الوصايا كلها. لأننا نحب الله، نُدعى خداماً صالحين. ولكن إذا زعم أحدهم أن الإيمان منوط بأننا نتقي الله كما ينبغي، ألا فليقل لنا كيف يمكن أن نخشى الله قبل أن نؤمن به. أو ليس أننا نؤمن بالرب أولاً ثم بعد ذلك نخشاه؟ وهكذا فالمخافة وليدة الإيمان، ومن الإيمان تتبع التقوى، بحسب النبي الذي تلقى من العلاء، قدرة الكلام عن الحكمة، ويشر، لدى نزوله، بروح المعرفة والتقوى، روح مخافة الله (أشعياء 11:2–3). فقد بدأ الرب بالمخافة، ثم انتقل بذي المخافة إلى **الكآبة**.

ليس من مجال، هنا، للتحدث بالترتيب، عن جميع أشكال التقوى، أي العمل الروحي. ولكننا نترك جانباً أعمال الجسد الممهدة للإيمان الكبير والمخافة النقية – وهي معروفة لدى الجميع – ونتكلم باقتضاب، بنعمة الله، عن غرائس الفردوس الروحي، أي عن فضائل النفس التي منها تنبثق القناعة التامة والامتناع عن جميع الشهوات. فمن جملة الأعمال الجسدية، توجد قناعة أخرى جزئية تلقن استعمال المآكل والمشارب. وأما القناعة التامة فهي تردع كل فكر وكل حركة في الأعضاء لا تتوجه إلى الله، وتسمى السيطرة على الأهواء. فمن كانت لديه هذه القناعة، لا يُطيق فكراً ولا قولاً ولا أي حركة من الرجل أو اليد أو أي عضو آخر من الجسد، إلا ما هو ضروري لحاجة الجسد، أي للحياة الجسدية وخلاص النفس. ولكن الشياطين يضاعفون عندئذ تجاربهم. وقد لحظوا الملاك في جسد، من خلال حرارة (الإيمان) وعمل الخير. لا بد للإنسان إذن من أن يعمل ويسهر (تكوين 15:2)، فالعمل كامل ويجب أن نقيم عليه حراسة متواصلة، لئلا تُغفل واحدة من الشهوات الخارجية فتتسلل إلى الداخل.

ليست القناعتان والعفتان من صنف واحد. فإحداهما تلجم العهر والأهواء المشينة. والأخرى تستقطب في ذاتها قمة الفكر الرهيفة والسديدة، ومن خلالها تقوده إلى الله. ولكننا لسنا هنا بإزاء موضوع يمكن التعبير عنه بالكلام تعبيراً دقيقاً، ولا معرفته بمجرد السماع عنه. فهو ثمرة اختبار نحزه بالممارسة والمعرفة لهاتين الفضيلتين اللتين يذهل لهما العقل. وليقولوا لنا أيضاً كيف، بمجرد التسمية، نقدر على أمور كثيرة، وحتى على رفع التراب وجعل المادة لامادية. لا شك أن التعليم الدنيوي يعرف حق المعرفة أسماء أخرى مع مدلولاتها التي يستخرجها من جذورها اللغوية. ولكن خبرة الفضائل واقتناءها بحاجة إلى الله، ويستلزمان من الجهود والوقت قدراً كبيراً، ولاسيما فضائل النفس، وهي الفضائل الأساسية والأكثر خفاء. ففضائل الجسد – وهي بالأحرى أدوات الفضائل – أيسر منالا، وإن لم يخل اكتسابها من مشقة. وأما فضائل النفس فهي أعسر منالاً بكثير، مع أنها لا تستلزم سوى انتباه الفكر. ولذلك يقول الناموس، قبل أي شيء آخر: "تحفظ لذاتك" (خروج 21:23). وقد كتب باسيليوس الكبير في هذا القول حديثاً شيقاً.

وأما نحن غير المنتبهين في شيء، والعائشين، في معظمنا، عيش الفريسيين، فما عسانا نقول؟ بعضنا يمارس، ولا شك، الصوم والسهر وما يشبه ذلك، ولكن معرفتنا جزئية غالباً. والواقع أننا لا نملك التمييز، لأننا نأبى التنبه لذواتنا ومعرفة ما يطلب منا. ثم إننا لا نسهر على الأفكار سهراً كافياً، ولا نريد المواظبة لنستوفي الخبرة النابعة من الجهادات والتجارب، مع أننا أصبحنا، في نظر الآخرين، بحارة ماهرين ، إن لم نكن ربابنة. كلنا عميان. فإذا أبصرنا، زعمنا كالفريسيين

أننا نحن المبصرون. ولذلك دينونتهم أعظم، كما قيل (يوحنا 9:41). فلو كنا عميانا، لما حكم علينا، ولكان حَسْبُنا، والحالة هذه، أن نكون من الشاكرين والمقرين بضعفهم وجهلهم. ولكن، يا للأسف! نحن كاليونانيين، دينونتنا أعظم. وهذا ما يقوله سليمان: "لقد تصوروا أمورا كثيرة، ولكنهم خسروا ما كانوا يطلبون" (حكمة 15:4). أفيجب إذن أن نصمت، وكأننا ليس لدينا ما نفعله؟ ولكن هذا أشد قبحاً. "فالأولى – كما قيل – أن تتبصروا. فإن الأعمال الق تعمل في الخفية، يستحيا حتى من ذكرها" (أفسس 11:5).

وعلى هذا، ألزم الصمت. ولكنني سأتحدث عن الفضائل التي يجب أن تفوز بإعجابنا. فقلبي المظلم يأنس إلى ذكرها وعذوبتها. وعندما أفكر بها أنسى قدري، وأصبح لا أحفل بالدينونة التي تترقبني إذا تكلمت وما فعلت.

القناعة والعفة لهما إذن القدرة نفسها، وكل منهما صنفان، كما قلنا. ولكننا سوف نتحدث الآن عن أمور أسمى. فمن كان لديه، بنعمة الله، الإيمان الكبير، إيمان المشاهدة والمخافة النقية والإلهية (مزمور 10:19)، وأراد من خلالهما أن يحفظ القناعة والعفة، عليه أن يصون ذاته، في الداخل وفي الخارج، ويحفظ كالميت جسده ونفسه بمنأى عن هذا العالم وعن البشر، مناجياً فكره في كل شيء، وقائلا: من أنا، وهل حياتي (مزمور 48:89) سوى رجس؟ التراب في البداية (تكوين 19:3)، والدود في النهاية (أيوب 6:25)، وما بينهما وحتى النفس الأخير، جم من الكبرياء. ما حياتي؟ وكم تدوم؟ ساعة ثم الموت! فما همني كذا أو كذا. إني أموت الآن؟ والمسيح يحمل الحياة والموت. فعلام اضطرب وأنازع عبثاً؟ فأنا بحاجة إلى كسرة خبز، فلم هذا كله ؟ فإذا كان لدي قليل الخبز هذا، فما علي أن أهتم لشيء. ولكن إذا لم يكن لدي هذا الخبز اليسير، فلربما انحصر فيه كل فكرى، سبب ضعف المعرفة، وان يكن الله هو عنايتى.

على الإنسان أن يهتم إذن، قبل كل شيء، بالسهر على حواسه وأفكاره، حتى لا يكون شيئاً ولا يفعل شيئاً مما لا يبدو له منسجماً مع الله. وليُعدِد نفسه للصبر في الملذات والمشقات الصادرة من الشياطين والبشر، ولا يهابن شيئاً من هؤلاء ولا من أولئك، ولا يستسلم لا للفرح الغبي والغرور، ولا للحزن واليأس؛ وليرذل ادّعاء الفكر إلى أن يأتي الرب، له المجد إلى الدهور. آمين

الحديث الخامس

هوذا الحديث الخامس، ورمزه حرف الهاء، وموضوعه الصبر. فالصبر أوّلٌ وعظيمٌ بين الفضائل، وبه تتمُّ معرفة كل منها، والآن، أيها الآب، بارك البداية.

قال الرب: "من يصبر إلى النهاية، فذاك الذي يَخْلُص" (متى10: 22). كلّ الفضائل تلتقي في الصبر، وبدون الصبر لا تقوم فضيلة. فما مِن أحد يلتفت إلى الوراء يصلح لملكوت الله" (لوقا 9: 62)، ومن زعم أنه يملك الفضائل كلها، فهو لا يصلح أيضاً، لأنه لم يواظب حتى النهاية، ولم ينجُ من فخاخ الشيطان ليبلغ ملكوت السماوات، وحتى الذين نالوا العربون هم بحاجة إلى صبر ليرثوا الثواب الكامل في الدهر الآتي.

ففي كل علم وكل معرفة لا بدّ من الصبر، وهذا بديهي، فبدونه، الأشياء الحسية نفسها ليس لها وجود، ومهما أنجزنا، انطلاقاً من الأشياء، فلا بدَّ من الصبر ليثبت ما أنجزناه، وجملة القول أن كل شيءٍ، قبل أن يكون، يتكون عن طريق الصبر؛ وبعد أن يتكوَّن، فهو بالصبر أيضاً يثبت، ولا

يستمر، ولا يكمل بدونه، فإذا كان ثمة شيء صالح، فالصبر يُسَيِّره ويحفظه. ولكن إذا كان ثمة شيءٌ سيء، فالصبر يُولي المرونة، وعِزَّةُ النفس، ولا يسمح بأن يتعرض المُجَرَّبُ لتاريخ الصغارة، وعربون جهنم.

والصبر هو الذي ينقض عادة اليأس الذي يعيث في النفس دماراً. وهو الذي يعلم تعزية النفس فلا يعتريها الونى، تحت وطأة الجهادات، والأحزان الكثيرة، وقد وجد يهوذا الموت المزدوج لأنه خلا من الصبر ومن كل خبرة الجهاد. وأما بطرس فقد ملك الصبر وخبرة الجهاد، فمن بعد سقطته، تغلب على الشيطان الذي كان قد أوقع به (متى26: 75؛ 27: 5)، وذاك الراهب الذي سقط في الدعارة، هو أيضاً عندما اكتشف الصبر، قهر الذي قهره، رافضاً الاستسلام لفكرة اليأس التي كانت تدفعه إلى هجر صومعته والصحراء. وكان، في صبره، يقول: "لم أخطأ! وأقول لكم أيضاً: لم أخطأ!" فيا للفطنة الإلهية، ويا للمثابرة عند هذا الرجل المقدام!

والصبر– تلك الفضيلة المغبوطة – هو الذي أوصل إلى الكمال أيوب وحسناته الأولى، فلو كان هذا الصديق فقد الصبر، وإن قليلاً، لكان خسر حقاً كل ما أُعطي من قبل، ولكن المطلع على صبره سمح بذاك الفرح لكماله وفائدة كثيرين غيره.

من يعرف أين خيره يجاهد، قبل كل شيء، ليحرز الصبر. وهذا ما يقوله باسيليوس الكبير: "لا تقاوم كل الأهواء دفعة واحدة؛ فقد تخطيء هدفك، وترتد إلى الوراء ولا تكون أهلاً لملكوت السماوات (لوقا 9 :62)، ولكن قاوم الأهواء واحداً واحداً، بدءاً بالصبر في المضايق". وهذا بديهي! فمن كان صبوراً لا يمكنه التوقف أبداً في المعارك البشرية، وما عليه إلا أن يحرز نفسه من التقهقر ويحرز الآخرين من الفرار والهلاك، على حد قول الله لموسى: "من كان خائفاً فليرتدّ عن القتال (تثنية 20: 8)...الخ".

في المعارك البشرية، بالإمكان، ولا شك، أن نختبئ في منزلنا ولا نخرج منه للكفاح، ولكننا بذلك نُحْرَمُ الهبات والأكاليل، ولا يبقى لنا سوى الفاقة والعار، وأما في العراك الروحي، فليس من موقع لا تدور فيه رحى الحرب، حتى وإن طُفنا في الخليقة كلها. فحيثما نتوجه، نقع على الحرب، ففي الصحراء: الوحوش والشياطين والمضايق والمخاوف. وفي السكينة: الشياطين والتجارب. وفي وسط الناس: الشياطين والمُغْوون. ما من مكان، على الإطلاق، بمأمن من التجارب. ولذلك بدون الصبر، لا سبيل إلى وجود الراحة.

الطمأنينه تنبع من المخافة ومن الإيمان. والحكيم يختبر الأشياء في ذهنه أولاً، ويجد نفسه مطارداً من كل صوب، كما قالت سوسنة؛ ولكنه، مثلها، يختار ما هو خير له. فقد قالت هذه المغبوطة لله: "لقد ضاق بي الأمر من كل جهة، فإذا طاوعت إرادة الشيخين الأثيمين فالزنى يُهلك نفسي، وإذا لم أُطِعْ، اتهماني بالزنى. فإنهما أقيما للقضاء في الشعب، ويحكمان علي بالموت. ولكن خير لي أن ألوذ بالقدير، حتى وإن ترصَّدني الموت" (دانيال 13: 22) (بتصرف)، يا لحكمة المرأة المغبوطة، لقد استعملت فطنتها فلم تخطئ رجاءها. فإذا كان الشعب مجتمعاً والشيخان الأثيمان جالسين لاتهام البريئة والقضاء عليها بالموت بجرم الزنى، أظهر الله نبيه في شخص دانيال (دانيال 15: 50) وكان عمره اثنتا عشر سنة فأنقذها من الموت وردَّ الحكم على الشيخين المزمعين أن يحكما عليها ظلماً.

وقد أظهر الله بذلك كم هو قريب ممن لا يحفلون بضيقهم، بل يبغون احتمال التجربة لأجله، ويأبون الغَدْر بالفضيلة، ويؤثرون شريعة الله صابرين في الشدائد، فرحين برجاء الخلاص، وإنهم لعلى صواب: فإذا كان قبالتنا خطران: أحدهما والآخر أبدي أفلا ينبغي اختيار الأول؟ ولذلك يقول القديس اسحق: "خير أن نجابه الأخطار حباً بالله، ونقدم له المجازفة قرباناً على رجاء الحياة الأبدية، من أن نقع بعيداً عن الله، خوفاً من التجارب، بين يدي الشيطان ونذهب معه إلى العقاب".

من الخير إذن، عندما نحب الله، أن نفرح في التجارب، على مثال القديسين. ولكن إذا لم نكن منهم، فلنؤثر أهون اللزومين، ما دام هناك لزوم: إما بأن نضع جسدنا في خطر، ونملك بالروح مع المسيح بالدهر الحاضر عن طريق **اللاهوى**، وفي الدهر الآتي، وإما بأن نسقط خوفاً بالتجارب – كم قلنا – فنذهب إلى العقاب الأبدي. عسى الله ينقذنا بالصبر في الأخطار، فالصبر مثل جلمود وطيد في وجه رياح الحياة وأمواجها.

من وجد الصبر لا يهن عندما تطمو المياه، ولا يرتدّ إلى الوراء، ولكن عندما يصيب الطمأنينة والفرح، فهو يحذر أيضاً الانسياق إلى الغرور، بل يبقى هو هو في اليسر كما في العسر، ولذلك فهو لا يقع أبداً في شرك العدو (مزمور 119: 110). فإذا وجد الطقس عاصفاً احتمله بفرح، صابراً حتى النهاية. ولكن إذا كان الطقس صاحياً، فهو يترقب التجربة حتى آخر رمقٍ في حياته، كما أراد ذلك أنطونيوس الكبير، مثل هذا الإنسان يعلم أن لا شيء في هذه الحياة، باقٍ على حاله، بل أن كل شيءٍ عابر، فلا يكترث لشيء من هذه الأشياء، بل يكل كل شيء إلى الله، لأنه هو الذي يعنى بنا (1بطرس 5 :7). وله ينبغي كل مجد وقدرة كل الدهور. آمين (رؤيا 5: 13).

الحديث السادس

إليك أيضاً حديث إنجيلي مدوَّن، ولكن، هذه المرّة، في رجاء الخيرات الآتية، فالواو هو سادس الحروف، **والذهن** يسعى إلى التحرر من كل همّ. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

الحياة رجاءٌ لا يعروه هم، وثروة خفيّة عن الحواس، وإنما تشد الحكمة وطبيعة الأشياء. الزارعون يتعبون عندما يبذرون ويغرسون. كذلك البحّارون يجابهون أخطاراً كثيرة. والأولاد يتلقنون الآداب والعلوم الأخرى. وهؤلاء كلّهم شاخصون إلى الرجاء، يكدُّون بفرح، ويخسرون، في الظاهر، ما تملكه يدهم. ولكنهم، في الواقع، يكابدون المحنة، ويُحرمون غالباً ما عليهم أن يتخلّوا عنه، ليكسبوا أموراً أعظم.

ورُبَّ قائلٍ: كل ما له علاقة بالكسب نتعلمه بالخبرة. وأما الشؤون الروحية، فما قام أحدٌ من الأموات لينبئنا عنها. كل شيء مردّه إلى أننا لا نملك خبرة المواهب ومعارف الروح؛ وليس في هذا ما يبعث على العجب. فالذين يجهلون الأمور البدائية، يمتلكهم الهلع إلى أن يتلقّوا خبرتها. والأولاد الذين يجهلون فائدة الآداب والتعاليم الأخرى ينفرون منها. ولكن ذويهم يعلمون الكسب الذي ينتظرهم، فيحضّونهم ويضطرّونهم، حبّاً بهم، إلى تحصيل هذه المعارف. ومع الوقت، يكتسب الأولاد هذه الخبرة، ويبدؤون يُحبّون ما يحصّلونه والذين يرغمونهم على ذلك، لا بل يأخذون على عاتقهم، فرحين، أن يتلقنوا ما يُلقى إليهم.

ومن ثمّ، علينا نحن أيضاً أوّلاً، وانطلاقاً من الإيمان، أن نسلك في الصبر (عبرانيين 12:1)، ولا نقنط في الشدائد (لوقا 18:1)، حتى إذا ما حان الوقت أمكننا الوقوف على جدوى ما يصيبنا. وعندئذٍ نجدّ بلا ملل، فرحين سعداء، ونسلك في الإيمان – كما يقول الرسول – لا في العيان (2 كورنثوس 7:5). ولكن كما أنه من غير المعقول أن نجد بالإيمان غُنْم ما نأتيه في هذا الزمن، من المستحيل أيضاً أن نظفر بالمعرفة والطمأنينة ما لم نكدّ من الفضائل، عملاً وقولاً. وعلينا أن نكون، حتى آخر نَفَس، كالذين يخشون دائماً الغُرم ويرجون الغُنم. فالأولون لا يسعون عندما يكسبون فقط، بل يسعون أيضاً إذا ما فشلوا وأمسوا في خطر. فعلى الآخرين أن يفعلوا مثل ذلك،

عالمين أن الكسول لا يأكل من ثمر تعبه، ولذلك نراه معوزاً ومديناً بوزنات كثيرة: "إنك في الرجاء أقمتني" (مزمور 9:4) يقول النبي. ويقول الرسول: "إنهم في الرجاء أدركوا الكمال" (عبرانيين 40:11).

كل هذا نُذكّر به باقتضاب، مستشهدين بالطبيعيات والكتب الإلهية. فمن رام أن يظفر بالخبرة، فليجد، قدر استطاعته، في أعمال الجسد السبعة، مواظباً كما في المدرسة تماماً، وليدأب في العمل الأدبي، أي عمل النفس. فإذا بلغ الرجاء وثبت عليه، فاز بمعرفة ما أتينا على ذكره، وهو أنه، العمل الأول، أي **السكينة**، كان له ثواب الرجاء، وبات ربحه جاهزاً حتى قبل أن يتجشّم مواجهة الستة أعمال الأخرى، أي الصوم والسهر... الخ. لقد كان ربحه مكفولاً، فور شروعه في العمل الأول، وهو التروّض على **السكينة**، التي هي بداية تنقية النفس.

بيد أن التلميذ العديم الخبرة يعرف نعمة المعلّم، كالطفل الصغير لا يعرف فائدة والديه حتى وإن بات والداه مفضلّين عليه، بالنيّه، قبل مولده، ساعة كانا يدعوان له بأن يولد ويعيش. وهو، إلى ذلك، سيكون وريثهما، ويستوفي كل ما يُعِدّانه له، كل ثمر أتعابهما، ولكن الولد، في جهله، لا يكترث لأيٍّ من هذه الأمور، ويعتدّ الخضوع للوالدين محنة. ولولا ضرورة الطعام والطبيعة، لما عرف لهما جميلاً. فمن يبتغ ميراث ملكوت السماوات ويأبَ ما يصيبه، يبدُ أشدّ منه عقوقاً. فهو إنما خُلِقَ بنعمة، ووُلّي جميع الكائنات، ويرجو المستقبل، ويملك أبداً مع المسيح الذي أهّله – وهو العدم – لمثل هذه الهبات كلّها، العقلية منها والحسية، بحيث إنه أراد أن يبذل لأجله دمه الكريم، ولا يطلب منه شيئاً إلاّ أن يؤثر قبول خيراته؛ هذا هو مقتضاه الوحيد، فمن أخذه الدهش.

لقد قيل: "ماذا يطلب الربّ منك؟" (ميلاخيا 8:7). يا للجَهالة! كيف، ونحن مبصرون، نعمى عن أسراره الرهيبة؟ فما يترقبه الله منا، هذا هو، بالضبط، أهم هباته. فكيف لا نفقه أن خير الناس كلهم هو العاكف على الفضيلة؟ إنه فوق الجميع يُحلق وإن لم يكن ثريّاً ولا نبيلاً. أما نعرف، في الدهر الحاضر، الأنبياء والرسل والشهداء، ونظل مع ذلك كترددين في شؤون الدهر الآتي؟ ألا فلنعتبر سيَرهم وما أتت أيديهم، ومن أين – بشهادتهم – نالوا النعمة والقوة وحتى المعجزات التي يصنعونها بعد مماته. ولننظر كيف يكرم الملوك والأثرياء إيقوناتهم المقدسة؛ ولنعاين المؤمنين يقضون الآن حياتهم، طافحين شكراً، في الفضيلة والفرح الروحي، والموسرين يتميزون غيظاً، ويُسامون التجارب أكثر من الزاهدين والفقراء، فيسوغ لنا، آنذاك، أن نُؤَمِّل أن الفضيلة هي حقاً خير الأمور على الإطلاق.

وإلاّ فلنعتبر بالوثنيين، كيف – وهم ربما يجهلون الله – يُشيدون، مع ذلك، بالفضيلة، وإن بدا لهم الإنسان غريباً؛ وحتى الخصم نفسه يعرف أن يحترم الفضيلة. فإذا اعتقدنا أن الفضيلة صالحة، فمن البديهي أن الله الـذي خلق الفضيلة وجاد بها على الناس هو أيضاً صالح. وإذا كان الله صالحاً، فمن البديهي أن يكون عادلاً، لأن العدل هو الفضيلة، ولذلك فهي صالحة. وإذا كان الله صالحاً وعادلاً، فهو بمحض لطفه يصنع ما يصنعه وما يصنعه دائماً، حتى وإن لم يظهر ذلك للأشرار؛ ولا غروّ، فليس شيءٌ يُظلم النفس مثل الخبث. فالله يُظهر ذاته في البساطة والتواضع، لا في الجهود، ويتجلى لا كما يتوهم أناسٌ لا خبرة لهم، بل بمشاهدة الكائنات، التي هي خلائقه، ويكشف الأسرار المكنونة في الكتب المقدسة.

ذاك هو ثواب **السكينة** والأعمال الأخرى في الدهر الحاضر، بانتظار أن نوهب، في الدهر الآتي، ما لم تره عين ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ممّا أعدّ الله للذين يحبونه (1 كورنثوس 9:2)، أولئك الذين تخلّوا عن رغباتهم، في الصبر ورجاء الخيرات الآتية التي نتمنى

الفوز بها، بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته البشر، الذي له ينبغي كل مجد وإكرام وقدرة إلى دهر الداهرين. آمين (رؤيا 5:13).

الحديث السابع

إليك الحرف السابع هو الزين، ويتناول حديثنا هذا فضيلة "**اللاهوى**"، وهو وليد الرجاء، وقوامه الهرب من العالم كله. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

الخلوّ من الهوى هو وليد الرجاء، فمن يَرْجُ الفوز، هنالك، بالثروة الأبدية، لا يَلْقَ عناءً في ازدراء تلك التي في متناول يده، حتى وإن وفَّرت له هذه الثروة الزائلة كلّ بحبوحة. فإذا كانت الحياةُ شاقةً مؤلِمةً، فمن يستطيع أن يقنع الرجل الفطين بإيثارها على محبة الله الذي يسبغ على محبّيه خيور الدنيا والأبدية؟ فنحنُ، والحالةُ هذه، براءٌ من العمى، ولا يحجب عنّا البصرَ ضعفُ الإيمان أو سوءُ النيّة أو العادة الرديئة. فلو آمنَّا أنِرْنا، ولو أتاح الإيمان الوطيد للإنسان أن يحظى بشيءٍ من نور المعرفة، لاجتهد في تدمير العادة القبيحة؛ ولو نوى ذلك في قلبه لأقبلت النعمة تعمل وتجاهد وإياه.

ولكن الرب يقول: "الناجون قليلون" (لوقا 13: 23). فالمنظورات تبدو عذبة، ولكنها في الواقع مُرَّةً. الكلب الجريح يلحس خطمه، ويلقى في ذلك من العذوبة ما يُذهله عن وجعه، ولكنه لا يدري أنه يلعق دمه. كذلك الشره يأكل ما يعود بالأذى على نفسه وجسده، ولكنه لا يأبه بالضرر الذي يجنيه على ذاته، وهكذا كل المستبعدين لأهوائهم مُصابون بمرض اللاشعور. بوسعهم، ولا شك، أن يصطلحوا، ولكن العادة تجتذبهم ثانية. ولذلك يقول الرب: "ملكوت الله يُؤخذ عنوة" (متى 11: 12) لا بالطريقة الطبيعية، بل بالتغلب على عادة الشهوات. فلو كان الملكوت يُؤخذ، بالطريقة الطبيعية، لما دخله أحد.

ولكن الذين يختارون نير الرب، فنيره لطيف والحمل خفيف (متى 11: 30). وأما الآخرون الذين لا يختارونه، فالباب أمامهم ضيّق والطريق شاقة (متى 7: 14)، والملكوت يُخذ عنوة (متى 11: 12). لأن الملكوت إلى الأولين قريب، بل هو في داخلهم وهم يرومونه ويرومون، منذ الآن، الوصول إلى حالة **اللاهوى**.

الإرادة تحقق الخلاص أو تحول دونه وليس ثمة شيء آخر. فإذا أردت صالحاً فافعله، وإذا عجزت عنه فأنوه، فهو لك وإن لم يكن بعدُ لديك. وهكذا، شيئاً فشيئاً، تعمل العادة من تلقاء ذاتها، سواءٌ للخير أم للشرّ. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما نجا لصّ يوماً، بينما الواقع أن لصوصاً كثيرين غمرهم النور. فانظر كم هو طويل الطريق الفاصل بين اللص والقديس. ولكن حيث عجزت العادة تغلبت النيّة.

إن الذي، بنعمة المسيح، يعكف على التقوى، أو حتى الذي يمارس الحياة الرهبانية، ماذا يمنعه من أن يصير إلى ما صار إليه اللصوص؟ هؤلاء كانوا بعيدين، وأما هو فقريب، وقد قطع، بمؤازرة النعمة، معظم الطريق، وورث بالفطرة أو من ذويه، خشية الله وتقواه. أفليس من المستغرب أن يتقدس لصوص ونابشو قبور، ويقع رهبان تحت طائلة الدينونة؟ ويحي! لقد غطّى الحياء وجهي (مزمور 16: 44)! الملوك، مثل يوصاف وغيره، يفتقرون، والفقير لا يقوى على انتهاج طريقه

القديم، وولوج ملكوت السماوات بدون عناء، بممارسة اللاهوى في الأمور التي لم يرثها من ذويه. فهو، يوم قال: "أتخلّى!"، إنما تخلّى في الواقع عمّا لا يملكه (هناك آخر يملك العالم وما فيه؛ وأما هو فلم يكن يملك سوى قدرة الاشتهاء). وعندما تخلّى طفق يملك كثيراً. قال: "لا أطيق المكوث فقيراً ولا احتمال المضايق". قل لي، بربك: أي مضايق؟ السجون والأنيار التي كان يعانيها قبل أن يصبح أميراً؟ ولكن الذين بيدهم السلطات والثروات يكابدون، هم أيضاً، مثل هذه الشدائد. إذن أي مضايق؟ الحرمان من الضروريات والتجرد وسائر المزعجات؟
ولكن لا يسعني الاسترسال في حديثي والدخول في التفاصيل ولا التشهير بمن أُترعوا خزياً. فإنه يكفي أن نهوى واحدة من المرئيات التي عدلنا عن اشتهائها، حتى نُسامَ خزياً وعاراً في الدهر الآتي، أسوةً بجيجزي (4 ملوك 20: 26) ويهوذا (متى 16: 15). فالواحد اشتهى ما لم يكن لديه، فأصابه البَرَص وسقط بعيداً عن الله، في آن واحد. والآخر ترك ما كان لديه، ثم أراد أن يسترده، فورث، دفعة واحدة، الهلاك والمشنقة.
وماذا للراهب من فضلٍ إذا لم يكن بتولاً وفقيراً؟ فالوصايا الأخرى، جميع الناس ملتزمون بحفظها، لأنها بديهيّة. فمحبة الله والقريب واحتمال المضايق، واستعمال الأشياء استعمالاً طبيعياً، والإقلاع عن الأعمال القبيحة، كل هذا التقيّد بالوصايا، لا يستطيع أحد أن يخلد إلى الطمأنينة في الدهر الحاضر؛ لأن الشرائع نفسها تقتصّ من المخلّين بها، والحكام يُلزمون بها رعاياهم، حفاظاً على الفضيلة، بحسب قول الرسول: "إنه لم يتقلد السيف عبثاً" (رومية 13: 4)، وأيضاً: ألاّ تخاف السلطة: افعل الخير تنل ثناءها (رومية 13: 3)، الجميع يراعون هذه الوصايا ويريدونها – هذا إذا لم يطالبوا بها – لأنها طبيعية. ولكن نصيب الراهب هو ما فوق الطبيعة؛ فهو يجاهد لأجل المسيح، ولذلك لا يستطيع أن يفوز بمجده، ما لم يكابد عذاباته. وهذا، على كلٍّ، ناموس طبيعي تشهد له الأمور البشرية. أفلا يُنَوِّه بجنود الملك بسبب ما يتجشمونه معه؟ أوليس مدحُ كلٍّ منا، في هذه الحياة، على قدر عذابه؟ أوليس خزيه على قدر قصوره؟ أولا يبدو أقرب إلى الملك بمقدار ما يكون لَبوسه أشبه بلَبوس الملك؟ أولا يبدو دخيلاً بمقدار ما تتنافر ثيابه وثياب الملك؟ على هذا النحو يجب أن ننظر إلى الأمور المتعلقة بملكنا. فبمقدار ما نتألم مع المسيح، ونتشبه بفقره، ونقاسي الآلام والإهانات التي احتملها قبل أن يصلب لأجلنا ويدفن، نزداد منه قرباً، وفي مجده اشتراكاً، على حدِّ قول الرسول: "إذا شاركناه في آلامه، شاركناه في مجده أيضاً" (رومية 8: 17).
فكيف – ويحنا! – نجهل أن الجنود واللصوص لا يتجشمون كل هذا العناء ويحتملون كل هذا العذاب إلاّ في سبيل الخبز؟ وأن المسافرين والبحارين لأجل الخبز أيضاً يعيشون بعيداً عن ذويهم؟ وأي مشقة يعانيها البشر كلّهم بمنأىً عن رجاء ملكوت السماوات، وكثيراً ما لا يقضون الوطر الذي لأجله كدّوا. ونحن نأبى أيسر العذاب في سبيل ملكوت السماوات، وفي سبيل الخيرات الأبدية، مع العلم بأن هذا السعي لا يشقّ علينا، إذا خَلُصَت النيّة. يجب ألاّ نحسب اقتناء الفضائل أمراً باهظاً لا يطاق بل فرحاً وطمأنينة عبر الرجاء وانتفاء الهموم والمجد اللاإرادي الذي يعقب الفضيلة (لأن الخصم نفسه يحترمها ويُعجَب بها). وقمة هذا السعي سعادة وتهلُّلٌ؛ بل فيه يكون اللاهوى ممزوجاً بفرح، كما تكون الحياة المادية المتردية في شهوات الرجس مثقلة بحزن.
عسانا ننجو منها فنكتشف الحياة اللاماديّة والأبدية، عن طريق اللاهوى الذي يُميت الجسد عن ذاته في المسيح يسوع ربنا الذي له ينبغي كل مجد وإكرام وسجود إلى الدهور. آمين

الحديث الثامن

إليك الحديث الثامن مع حرف الحاء. موت الأهواء يسببه **اللاهوى**. فمن لا يملك اللاهوى بجهده ليس له من الأهواء مفر. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
بالمشاهدة يظل الخليّ من الهوى دائماً متيقظاً لله. **فاللاهوى**، حيال المحسوس، يوقظ مشاهدة المعقولات، لا مشاهدة الكائنات الدنيوية، بل رؤية الأمور الرهيبة التي تسبق الموت وتعقبه. فالنعمة تلقن الخليّ من الهوى ما يتعلق بهذه الأمور، وتميته عن الشهوات عبر الكآبة، فيبلغ عذوبة الأفكار متى حان الزمان.
من الإيمان تولد المخافة، ومن المخافة التقوى، أي القناعة والصبر في الكآبة، والوداعة والجوع والعطش إلى البرّ والى كل فضيلة، والرحمة التي يتكلم عنها السيد في التطويبات، و**اللاهوى** الذي يضني الجسد في الآهات المديدة والعبرات المرّه، عبرات التوبة والحزن التي بها تطرح النفس فرح العالم وهم العيشة المرة، وتبدأ ترى أخطاءها بعدد رمل البحر. تلك هي، في النفس، بداية إشراقها ودليل عافيتها. وما دمنا بعيدين عن هذا الحدّ، فالدموع والأفكار الإلهية الموهومة والخشوع وما شابه ذلك تجعلنا، بلا مراء، أضحوكة الشياطين وفريستهم، وخصوصاً عندما نعيش وسط الناس أو في التلهيات مهما صغرت، فالذين لا يزالون عرضة لمحنة المحسوسات من أي نوع كانت، لا يمكنهم التغلب على الشهوات.
وإذا ادّعينا أن الأقدمين كان لهم الدين والدنيا، فلنعلم أنهم كانوا، في الواقع، يملكونهما، ولكنهم ما كانوا يستعملون قط شيئاً بدافع الشهوة. فعندما كانوا يتخذون زوجاتهم ولا يعرفونهن إلا بعد سنين طويلة، كما ورد في العهد القديم عن سلالات البشر، فمن الواضح أن اقتناءهن وعدم اقتنائهن سيّان عندهم. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أيوب وسائر الأبرار. داود أيضاً كان ملكاً ونبيّاً، وسليمان وقتاً ما. وقال هو نفسه إن الله جعل للبشر عناءً رديئاً يعتنون به في الباطل (جامعة 1:13)، لئلا يميلوا إلى الأسوأ. وهذا ما تعلّمه طبيعة الأشياء أيضاً. هناك أناس تتجاذبهم ربوات من الملاهي، ويجدون مع ذلك مجالاً لاقتراف المظالم، فكم تكون معاصيهم لو لم تكن حياتنا متلهّية؟ مثل هذا الإنسان، إلا فليعش في التلهيات، فإنه خير له أن ينقاد للملاهي الرديئة، ويحرم الأمور والأفكار الإلهية من أن يتقرف أشياء أخرى رديئة، شراً من هذه.
من فاز، بنعمة الله، بمعرفة جزئية، وتمكّن من إدراك الأمور الرهيبة التي تسبق الموت وتليه، وسبّبتها المعصية، يجب ألا يهمل مثل هذه الأفكار ولا الأعمال التي تدفع بها إلى السكينة الكاملة والخلوّ من الهموم، وعليه ألا ينجرّ إلى التلهّي في الباطل (جامعة 1:2). "باطل الأباطيل وكل شيْ باطل" (جامعة 1:2). ويضيف يوحنا الدمشقي: "في الحقيقة العالم باطل والحياة ظل ومنام. وباطلاً يضطرب كل إنسان، يقول الكتاب". وهذا الوضوح بعينه: فهل ثمة شيء أشد تفاهة من هذه الآخرة في النتن والتراب؟ (مزمور 39:12).
ومن ثم، **فاللاهوى** لا يميت الذهن بل الجسد بعيداً عن نزوته الأولى نحو المتع والترغد. فرغبة الجسد هي الترغد مهما كان زهيداً. وتحزن النفس من ذلك، إذا لحظت في داخلها عملاً أو معرفة روحية. ولكن إذا كانت النفس هي ذاتها جسداً، فروح الله لا يقيم فيها. ومن ثم، فهي لا تكترث لأي عمل صالح، بل تسعى إلى تحقيق رغبات الجسد والشهوات الكامنة فيها، راكمةً ظلمات فوق ظلمات، ومسارعة دائماً إلى العيش في جهل مطبق. وأما من كان عنده من النور ما يمكنه من رؤية ذنوبه، فهو لا يكف عن الانتحاب على ذاته وعلى البشر أجمعين، ويرى صبر الله الذي لا حدود له، وكمِ من الذنوب ويحنا!– اقترفناها منذ البداية ونقترفها دائماً، فيشكر لله هذا الجميل، ولا يجرؤ على أن يدين أحداً، وقد أخجلته كثرة أفضال الله ووفرة ذنوبنا. ومن ثم، فهو يتخلى بفرح عن كل رغبة خاصة، وعن كل ما لا ينبع من نعمة الله، ويسهر على حواسه لئلا تأتي نقيض

استعمالها، أو التعامي شيئاً ينافي الاستعمال الضروري، كما يقول النبي: "يا رب، لم يرتفع قلبي، ولم تستعل عيناي" (مزمور 1:131).
وإنما عليه- وقد بلغ مثل هذا الشأن - أن يكون متيقظاً لئلا يصيبه هو أيضاً، عن إهمال أو غرور، ما أصاب النبي، ويصبح غير قادر أن يتوب مثله. ولا غرو، فإن أعاظم الصديقين أنفسهم عرضة للخطيئة، وأما التوبة فليست في متناول الجميع. فالموت قريب، وقبله اليأس، فخير لنا إذن ألاّ نزل، وأن ننهض إذا زللنا. وإذا اتفق لنا أن نزلّ، فخير لنا ألا نقنط، وألا نحجب أنفسنا عن محبة المعلم للبشر. فهو قادر ، إذا شاء، أن يرحمنا (3 ملوك 20:15)، بغض النظر عن ضعفنا. فلا نفارقه، ولا نضق ذرعاً بالوصايا المفروضة علينا، ولا نفشل من أننا لا نصل إلى نتيجة، ولنتعلّم أن ألف سنة، في عيني الرب، مثل يوم، وأن يوماً واحدا مثل ألف سنة (مزمور 4:90). فلا نعجل ولا نتراجع، بل فلنعد الكرة دائماً. أسقطت؟ فانهض، أسقطت؟ ثانية فانهض أيضاً، ولكن لا تترك الطبيب، وألا فأنت شر من منتحر يخضع لحكم اليأس. إلبث بقربه فيرحمك إما عن طريق العودة، وإما عن طريق التجارب أو عن أي طريق أخرى من طرق العناية، لا علم لك بها.
من عادة الشيطان أن يهيمن على النفس، إذا وجد فيها الفرح والزهو، أو الحزن والقنوط، أو الانشغال المفرط، أو القعود التام، أو أموراً وأفكاراً تجري، ظاهرياً، في غير أوانها وعلى والكراهية العشواء لجميع الكائنات. وجملة القول أن الشيطان يستحوذ على النفس، أياً كانت المادة التي يجدها فيها، بحيث تصبح لا تجدي نفعاً، حتى وإن كانت صالحةً ومرضية لله، وذلك على افتراض دعمها، بطريقة معتدلة، على يد المؤهلين للحكم في الأمور واستجلاء قصد الله المكنون ما بين الشهوات الست المحيطة به، أي من فوق ومن أسفل، عن اليمين وعن الشمال، في الخارج وفي الداخل، فإن العمل بحسب الله، كالمعرفة، له غاية حسنة، وسط الشهوات الست التي تقاومه.
ولذلك، علينا أن نستشير في كل شيْ – كما يطلب ذلك القديس أنطونيوس – الذين ينعمون بموهبة التمييز، لا أول من نلقاهم من الناس. فإذا كانوا ممن تعوزهم الخبرة، فكلاهما يسقطان في الحفرة (متى 14:15) على ما ورد في مثل الإنجيل. فإنه ما من شيء صالح يتم بدون تمييز، حتى وإن بدا الأمر حسناً للجهال، فهم لا يلحظون أنه يتم في غير أوانه، أو على نقيض الاستعمال أو نقيض اعتداله أو قدرة الإنسان عليه، أو نقيض معرفته أو أي لزومٍ آخر. فمن كانت لديه موهبة التمييز، فقد تلقاها عبر التواضع، ومن ثم فهو يعرف كل شيء بنعمةٍ، فإذا آن الأوان، بلغ صفاء الرؤية.
الكآبة الصبر يولدان إذن الرجاء واللاهوى، وبهما نموت على العالم، ولكن إذا ثابرنا كما ينبغي، ولم نيأس مما نراه في كل مكان من ألوان العذاب والموت، وإذا عرفنا أن كل شيء محنة وإشراق، وأحجمنا عن التفكير بأننا بلغنا القياس، واغرورقت عيوننا دائماً بدموع الحزن، تم لنا، إذ ذاك، أن نعاين جليّا آلام الرب المقدسة، ونتعزى بها تعزية كبرى، ونعدّ أنفسنا حقاً دون الكائنات كلها، لما نشعر به من كثرة الخيرات المتحققة فينا بنعمة الله، له المجد والقدرة إلى الدهور. آمين (1 بطرس 11:4).

الحديث التاسع

دونك حرف الطاء والحديث التاسع في عذابات المسيح المقدسة. فَمِنْ ذكر الموت والأخطاء تتبع دموع غزيرة للمُكِبِّ على العمل. وعبر الدموع، نستطيع أن نحمل في ذهننا آلام المسيح وقدّيسيه. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

لئلا يحسب أحد انه يأتي عملاً عظيماً عندما يعكف على الرياضة وجميع الأتّات وكل دموع جسده، فقد أُعْطِيَ معرفة آلام المسيح وجميع قديسيه. يتأملها فتثير شجوّه وإعجابَه في آنٍ واحد، فيعمد إلى تشذيب ذاته بالمجاهدة. فهو يُقِرُّ بعجزة عن تأمل تلك المِحَن الكبيرة والكثيرة. ألا، كيف احتمل القديسون، بفرح، مثل تلك العذابات المبّرحة؟ وأي آلام قاساها السيّد لأجلنا؟

هكذا يستنير في معرفة سيرة المسيح وكلامه، ويفقه جميع مقولات الإنجيل. فتارة ينتحب بمرارة كئيباً، وتارة يتهلل بالروح شاكراً، لا لأنه يحسب أعماله حسنة – فذلك غرور!– بل لأنه وهو خاطئٌ كبير، أكرم بمثل هذه المشاهدة. إنه يزداد تواضعاً، بالعمل والقول، عبر الأعمال السبعة التي تحدّثنا عنها، وعبر العمل الأدبي الذي هو عمل النفس، وضبط الحواس الخمس وحفظ وصايا الرب. وهو لا يتوّسم في ذلك أيّ عمل صالح يستحق ثواباً، بل يرى فيه ديناً لا يُؤَمِّل أبداً وفاءه، لكثرة ما أُكْرِمَ به من معارف عظيمة.

إنه في شبه انخطافٍ بمعنى الكلمات التي يقرأها أو يترنّم بها. وفي غمرة متعته، كثيراً ما يذهل، مكرهاً، عن خطاياه، فيبكي فرحاً ويذوق عذوبة الشهد. ولكنه يستردّ ذاته ثانية، خشية الخطأ والانسياق في غير أوان، ويتذكر كيف كانت بالأمس سيرته، فيذرف دموعاً مرّة. وهكذا يشق طريقه بين العذوبة ومرارة دموعه، ولكن بشرط أن يظل متيقظاً، ويتقبّل، في كل شيء، نصيحة ذي خبرة، ويسجد أمام الله منقطعاً، بكل كيانه، إلى الصلاة النقية التي تليق بالراهب العامل، ومستجمعاً ذهنه في ذكره تعالى، بعيداً عن كل ما يعلمه أو سمعه، وبشرط ألا يلتمس سوى واحد: أن تتّم مشيئة الله في كل أعماله وكل أفكاره.

ولكن إذا تصوّر أنه سيشاهد ظهور أحد الملائكة القدّيسين أو المسيح، تعرّض للوقوع في الوهم، لأنه يجهل أن من يسعى إلى رؤية المسيح، يجب ألا يبحث عنه في الخارج بل في ذاته، مقتدياً بسيرته في العالم، وحافظاً جسمه ونفسه، كالمسيح، بعيداً عن الخطيئة. ويجب أن يفكر ذهنه دائماً في المسيح. وأما أن يخطر في البال وقت الصلاة شكل أو لون أو فكر آخر، فليس ذلك مفيداً بل مؤذياً كل الأذى. لأن الذهن يجب أن يكون في موضع الله – يقول القديس نيلوس، مستشهداً بقول صاحب المزامير: "موضعه في السلام"(مزمور 9:25)، والسلام هو انتفاء كل فكر، حسناً كان أم رديئاً. فالذهن – يقول نيلوس – إذا عقل المحسوس، فهو ليس في الله وحده، بل في ذاته. وهذا بديهي. فالإلهي لا نهاية له، ولا حدّ ولا شكل ولا لون. فمن أكد أنه مع الله وحده، عليه أن يجلو عن ذاته كل هيئة أو لون أو شكلٍ أو أي شيء يشتّته. وفي ما عدا ذلك، فكل شيء وهمٌ شيطاني، ومن ثم يجب أن نحرص على ألا نحفظ في ذاتنا أي فكر، حسناً كان أم رديئا، من غير أن نستشير ذوي الخبرة، لأننا نجهل هذا وذاك. إن الشياطين يَتَلَبَّسون بكل ما يشاءون من الأشكال، وبجميع المظاهر التي يشتهي الذهن البشري رؤيتها، متخذاً هو نفسه من الشكل واللون ما هو على صورة الشيء الذي يتلقاه. ولكن الشياطين يفعلون ذلك ليستدرجونا إلى الخطأ، فيضلُّ ذهننا في قصده الغبي أن يبلغ الكمال بذاته.

يجب، قدر المستطاع، أن نحمل الذهن على المواظبة على شؤون الله. وتلك هي مهمة أعمال الجسد السبعة، ومشاهدات الذهن الثماني، أي المعارف. فالمعارف الثلاث الأولى تذكّر – كما قلنا – بآلام الرب المقدسة، ويجب أن نداوم عليها، منتحبين على نفسنا ونفوس إخوتنا، ومتعظين بالبلايا التي أغرقتنا فيها المعصية منذ

البدء، وبجميع الآلام التي وقعت فيها الطبيعة. على كلٍ منا أن يلحظ هنا أخطاءه الشخصية والتجارب التي مُنيَ بها لتأديبه. وعليه، بعد ذلك، أن يحدق النظر في الموت وما يترقب الخاطئ بعد الموت من أمور رهيبة. وهكذا تفرغ النفس للكآبة، منسحقةً، تتادي وتتواضع، لئلا تلجأ إلى اليأس، بتأثير هذه الرؤى المرعبة، ولئلا تتوهم، من جهة أخرى، أنها بلغت العمل الروحي، بل

تلبث في المخافة والرجاء، أي في الحالة التي نسمّيها أيضاً وداعة الأفكار. هذه الوداعة تُفضي بالذهن إلى المعرفة والتمييز، وهذا ما يقوله النبي: يهدي الودعاء إلى القضاء (مزمور 9:25)، أو بالأحرى إلى التمييز، وهو ما يسمّيه النبي المعرفة والتقوى (أشعياء2:11).
ولكن كما أن اسم التقوى وحده يشمل أعمالاً كثيرة، كذلك المعرفة – التي ليس لها سوى اسم واحد – هي في الحقيقة جملة معارف ومشاهدات. فمبدأ العمل الجسدي هو المعرفة، وبدون المعرفة لا يقدر أحد أن يفلح في عمل الخير. وحتى نهاية [زمن] التبني، أي حتى صعود الذهن إلى السماء في المسيح، تدعى المعرفة أيضاً مشاهدة. ولكنّ الأولى نحرزها قبل الجهد، لننجز العمل إنجازاً حسناً، فهي شبه وسيلة إبداع. وأمّا الثانية فتعقب الإيمان، ونتخذها سوراً نتحصّن به عبر المخافة. وأيضاً: المعرفة وعمل فضائل النفس يتوخيان إعداد أغراس الفردوس والعناية بها.
فعسى أن تكون معرفة الذهن وعمله الروحي – أي تنبّه الذهن وسيرة النفس – حافزاً للعامل بالوصايا، على الاجتهاد والسهر الواعي. فمن خلالهما، تتم العناية بالأغراس، ويتحقق عمل العناية الإلهية. إنَّهما كالشمس والمطر والريح والنموّ: فبدون هذه [العوامل] عبثاً يبذل المزارع كل جهده، حتى وإن تصرّف تصرفاً عاقلاً. وبدون الخفز السماوي، لا نستطيع أن نأتي عملاً صالحاً. ولكن لا الحفز ولا النعمة يهبطان على من لا إرادة عنده، يقول يوحنّا الذهبيّ الفم. جميع شؤون هذه الحياة مزدوجة: عمل ومعرفة، إرادة ونعمة، مخافة ورجاء، جهاد وجزاء. ولكننا لا نبلغ الثانيات قبل أن تتحقق الأوليات. قد يبدو لنا أحياناً نقيض ذلك، ولكنه وهم. فَرُبَّ جاهلٍ لأمور الطبيعة يبصر زهرة فيخالها الثمرة، ويمضي على فور ليقطفها. ولكنه لا يدري أنه خسر الثمرة يقطفه ما بدا له ثمرة. وهكذا الأمر هنا. فليس الزعم هو الذي يوجد ما نزعمه – يقول القديس نيلوس – ولذلك علينا أن نقيم في الله ونعمل كل شيء بتمييز.
ويأتي التمييز عبر الاستشارة المتواضعة، ولوم الذات وما نأتيه عملاً وفكراً. فالشيطان يتّخذ هيئة ملاكٍ من نور (2 كورنثوس 14:11) فلا نعجب لذلك. وحتى الأفكار الصادرة من عنده تبدو لمن لا خبرة لهم رؤىً مبرورة. التواضع مدخل اللاهوى، يقول يوحنا السلمي، ومادّة اللاهوى هي الوداعة، يقول باسيليوس الكبير. فالوداعة تجعل الإنسان دائماً في تعادلٍ مع ذاته، في العسر كما في يسر الأمور والأفكار. فلا الإكرام يمسه ولا العار. ويتقبل بفرح الملذَّة والمشقَّة، ولا يتكدّر مثل تلك العذراء التي يُحَدِّث عنها انطونيوس الكبير: "بينما أنا جالس، ذات يوم، يقرب الأنبا فلان، أقبلت عذراء تقول للشيخ: أصوم ستة أيام في الأسبوع، وأقرأ كل يوم العهدين القديم والجيد. فأجابها الشيخ: هل الفقر والبحبوحة عندك سيّان؟ قالت: لا. والتعيير كالثناء؟ لا، يا أنبا. والأصدقاء كالأعداء؟ – لا. فقال لها الشيخ الحكيم: أذهبي واجتهدي! فليس لديك شيء". وكان على صواب. فإذا كانت تصوم كل هذا الصوم، فلا تأكل سوى مرّه في الأسبوع، مكتفية بشيءٍ زهيد جداً، أفما كان يجب عليها أن تحسب الفقر كالبحبوحة؟ وكيف كانت تقرأ كل يوم العهدين القديم والجيد، ولم تتعلّم التواضع؟ وبما أنها لم تكن لتملك شيئاً في هذه الحياة، أفما كان يجب عليها أن تحب جميع الناس؟ وإذا كان لها أعداء، أفما استطاعت أن تتعلّم، بعد كل هذه الجهود، أن تعدّهم أصدقاء؟ لقد كان الشيخ إذن محقاً في قوله لها: "ليس لديك شيء".
وأما أنا فأضيف أن مثل هذه النفس تتعرّض لدينونة كبيرة. وهذا ما يقوله يوحنا الذهبي الفم في شأن العذارى الجاهلات: لقد تجلّدن ومارسن أثقل ألوان الزهد، أعني البتولية الفائقة الطبيعة، ولكنهنّ لم يملكن الرحمة وهي أخف حملاً بكثير، ويمارسها اليونانيون والوثنيون أنفسهم حتى اليوم، بصورة طبيعية. ولكن الذي لم يكن يدري ما يريد، فقد تعب عبثاً: "كان يجب عليكم أن تعملوا هذا– يقول الربّ، ولا تهملوا ذاك" (متى 23:23) الزهد حسن، ولكن يجب أن يكون الهدف منه صحيحاً. وعلينا ألا نحسبه هو العمل، بل تمهيداً للعمل، لا الثمر بل الأرض التي تستطيع، مع

الوقت والجهد والله، أن تغذي الأغراس التي تؤتي الثمر، أي تنقية الذهن والاتحاد بالله، له المجد إلى الدهور. آمين (رومية 36:11).

الحديث العاشر

إليك الحرف العاشر، الياء، الحديث عن تواضع المسيح. فأن تخلو النفس من كل هم، وتعمل لذاتها كليّاً، هذا ما عليها أن تضطلع به، بكل قدرتها. والآن، أيها الآب بارك البداية.
المتواضع، في قراره نفسه، لا يكف أبداً عن تونيب نفسه، حتى وإن ناهضه العالم بأسره، وتناوله بالإهانة، وذلك لا لِيُنقذَ فقط، كالصابرين، بدون إرادته، بل ليتوجّه. بإرادته، نحو آلام المسيح. مثل هذا الإنسان تعلّم من هذه الآلام أعظم الفضائل كلها، وهي التي يقيم فيها الروح القدس. ولا غرو، فهي باب الملكوت، وباب **اللاهوى**، من يَعبرْ بها يُقْبل إلى الله، وبدونها باطلٌ التعب وشاقٌ الطريق. وأما هي فتوقر الطمأنينة لمن يملكها في قلبه، لأن المقيم فيه هو المسيح. بها تدوم النعمة وتُحْفَـظ المواهب. وهي وليدة فضائل كثيرة: الطاعة والصبر و**التجرّد** والفقر ومخافة الله والمعرفة وفضائل أخرى. ولكنها بطريقة فريدة، وليدة التمييز الذي يُنير آفاق الذهن.
ولكن لا نظنَّنَّ أننا نصبح متواضعين بين ليلة وضحاها. فالتواضع فضيلة تفوق الطبيعة، ويمكن القول إن الموهبة تعظم بمقدار ما تشتدّ الصعوبة، فهي تقتضي كثيراً من الحكمة والصبر في مواجهة التجارب والأبالسة المتربّصين بنا، وتتغلّب على جميع أحابيلهم. وينجم التواضع من المعرفة والمعرفة من التجارب. فمن عرف نفسه مُنِحَ معرفة كل شيء؛ ومن خضع لله أُخْضِعَ له كل شيء (1 كورنثوس 28:15)، ما دام التواضع يسود أعضاءه.
فنحن، من خلال جميع التجارب، وبالصبر الذي به نكابدها، نفوز بالخبرة، فنعرف، عندئذٍ، ضعفنا وقدرة الله. فإذا عرفنا ضعفنا وجهلنا، اتضح لنا أننا تعلّمنا الآن ما كنّا نجهله من قبل. فكما أننا، بالأمس، كنّا نجهل هذه الأمور، وما كنّا ندري أننا نجهلها، فثمّة أمور أخرى كثيرة أيضاً أصبح بالإمكان، منذ الآن، أن نتلقى معرفتها. وهذا ما يقوله باسيليوس الكبير: "ما لم نذق طعم شيْ لا ندري ما نُحْرَمُهُ. وأما من ذاق طعم المعرفة، فهو يعرف، نوعاً ما، أنه يجهل، وتغدو المعرفة فيه ينبوع تواضع". وأيضاً: "من يعرف نفسه، ويعلم أنه خليقة متقلبة، لا يتعجرف أبداً"، ومهما يكن لديه، فكل شيء يعود إلى الذي خلقه. نحن لا نُشيد بآلةٍ لأنها صنعت نفسها أداةً مفيدةً، بل نمدح الذي صنعها. وإذا أضعناها، فلا نلوم صانعها بل الذي أضاعها.
ولكن إذا كانت الأداة مزوّدة بعقل، فلا بدّ من أن تكون حرة. إن الخالق الوهّاب مسؤول عن الخليقة، في كل ما يعود عليها بالخير. وأما ما هو من قبيل السقطة والضلال، فهو من اختيار الخليقة الحرّة. فكما أن الثابت على حالة تُفعمه النعمة مديحاً، كذلك يلقى الملامة من يستجلب لذاته سمّ الأفعى. فالمديح لا يعود إلى الذي يتلقى الهبات، بل يجب أن نرفعه شاكرين، إلى المعطي. من ينل المديح، قد يناله بنعمةٍ، لأنه، في عزمه، نال ما لم يكن يملكه، ولكن خصوصاً لأنه شكور للمفضل عليه. وإذا لم يكن الأمر هكذا، فهو لا يصبح أهلاً للمديح، لا بل يقع تحت طائلة الدينونة، بسبب جحودة النعمة. فلا يجسرن أحد على القول – في سفاهته – إنه لم ينل مجّاناً. ولكن عندما يسترق المديح ماكراً، ويتباهى ببلوغ **السكينة**، ويدين من، في الظاهر، لا يحذون حذوه، فهو الذي يدّعي لذاته الثروة التي يزعم امتلاكها والتي لم يحظ بها من لدن النعمة.

مثل هذا الإنسان، إذا أدّى الشكر للوهّاب، ولكن على طريقة الفرّيسي، قائلاً في سرّه: "أشكر لك (لوقا 11:8) أنني كذا وكذا" فقد أصاب الإنجيلي بقوله (بل القائل هو الله عارف القلوب): إنه كان يكلّم نفسه (لوقا 11:8)، ولا يكلّم الله. فهو، بفمه، كان يبدو في حديث مع الله. ولكنّ الواقف على سريرة نفسه المتغطرسة، أكد أنه لم يكن يتحدّث إلى الله، بل كان منتصباً يحدّث نفسه (لوقا 11:8). عندما يرد في الكتاب المقدّس مثل هذا القول، أو أقوال أخرى تشبهها، فليس ذلك – على حد قول يوحنا الذهبي الفم – على سبيل وضع لفظةٍ مكان أخرى، ولا على سبيل اللغو، بل لكي تتطبع الكلمة في قلوب سامعيها. لقد أبى صاحب المزامير، في اشتياقه، أن يدع الكلمة تذهب سدىً، كما يفعل الذين لم يذوقوا عذبتها، فيجسرون على دوسها بأقدامهم، بكل ما فيهم من ضجرٍ، تحرراً من عبثها.مثل هؤلاء القوم' هل يحملون يوماً بعضاً من شهيّ ثمار الكتب الإلهية، أم هم يحملون فقط الدينونة وعمى **الذهن**، لأنهم أشرعوا الباب للشياطين الذين يحاربونهم. وهذا ما قاله الرب: "إن يُفْعَل ذلك بالعود الرطب، فكيف باليابس لوقا 11:8 (لوقا 31:23)؟". وأيضاً: "إذا كان الصدّيق بالجهد يخلص، فكيف بالمنافق والخاطئ؟". عندما نرى الشياطين يحاربون الذين يفرغون كل **ذهنهم** في ذكر الله، بمنأىً عن كل مادّة وكل شكل' ونرى أن صلاتهم، لولا معونة الله وتواضعهم، لا يمكن أن ترتفع بل تعود خائبة، فنحن الأشقياء الذين، بأفواههم، لا يتحدثون حتى إلى الهواء، ماذا عسانا نفعل فينظر الله إلى شكرنا، وينحني، في نهاية رحمته، على جهلنا وضعفنا.

ولنستمع إلى ما يقوله القديس مكاريوس، في أن الشياطين يحاربون أيضاً الكاملين: ما من إنسانٍ كامل في الدهر الحاضر، ما دامت الهبة التي نتلقاها ههنا ليست هي العربون. ويورد لنا مَثَلَ أخٍ كان يصلي مع آخرين، فاختطف بالروح إلى السماء، حيث شاهد أورشليم العلويّة ومساكن القدّيسين. ولكنه عندما هبط من هناك، خُلِعَ من الفضيلة وأُحيلَ إلى هلاكٍ تام، لأنه تباهى بما كان قد جرى له، عِوَضَ أن يعتبر نفسه مَديناً أكثر بسبب بلوغه مثل هذا الشأو، هو غير المستحق والمجبول من التراب.

ويقول القديس نفسه أيضاً: "عرفت كثيرين، ولديّ خبرة الأمور الإلهية. ولجتها وأعرف معرفـــةً دقيقـــة أن ما من أحدٍ كامل ههنا. حتى وإن تجردنا من المادة تجرداً كليّا، وأصبحنا شبه متحدين بالله، فالخطيئة لا تزال هنا تتعقبنا، ولا تزول قبل الموت أبداً زوالاً كاملاً."

ويقول القديس نيلوس، في حديثه عن أحد الإخوة: "كان يصلي. ولكنّ الله سمح، لفائدته وفائدة كثيرين غيره، بأن يسلم إلى الشياطين. فأمسكه هؤلاء بيديه ورجليه، وقذفوه في الهواء، وعندما هبط ثانية، تلقفوه على حصيره، لئلا يترضض جسمه. وكرروا ذلك مراتٍ كثيرة، ولكنهم لم يقووا على إحدار **ذهنه** من السماوات". مثل هذا الإنسان، هل شعر يوماً بحاجة إلى الطعام؟ وهل ستكون به يوماً حاجة إلى الترتيل والقراءة ؟ وأما نحن فبحاجةٍ إلى ذلك، بسبب هزال **ذهننا**، وإن لم نُسَلّم به. فيا عجباً من قديسٍ يُكافَح ونحن نتهاون في الكفاح! القديسون بالتواضع يحصنون أنفسهم من فخاخ الشيطان، ونحن أنتباهى بجهلنا؟ جسيم جهلنا، عندما نتباهى بما ليس لنا. وقد قيل: "أي شيء لك لم تنله مجاناً من الله" (1 كورنثوس 7:4)، أو بفضل صلوات الآخرين؟ "فإن كنت نلته، فلم تباهي كأنك لم تنله (1 كورنثوس 7:4)؟" ، بل كأنك أنت نفسك قد فعلته، كما يقول الأنبا كاسيانوس.

التواضع هو إذن وليد المعرفة؛ وهذه تولّد التمييز ومنه صفاء الرؤية، ويسمّيهـــا النبي مشورة (أشعيا 2:11)، وهي ترى الأشياء في طبيعتها. عندئذٍ يموت **الذهن** للعالم، بمشاهدة خلائقه تعالى، له المجد إلى الدهور. أمين (رومية 36:11).

الحديث الحادي عشر

الأحاديث أحد عشر، والحادي عشر هو حرف الكاف. التواضع يولّد التمييز، تمييز طبيعة الخلائق الحسيّة. والآن، أيها الآب، بارك البداية!

من المفيد جداً أن نستشير في كل شيء. ولكن يجب استشارة ذوي الخبرة. والعكس خطير، لأن الذين لا خبرة لهم، لا تمييز عندهم. التمييز يحيط علماً بالوقت، والاستعمال، وحالة الإنسان، والميزان، والقدرة، والمعرفة، ونيّة المستشير، وقصد الله، وغاية كل كلمة من كلمات الكتاب الإلهي وأشياء أخرى كثيرة. فَمَنْ عُدِمَ التمييز تجشّم ربما عناءً كثيراً، ولكنه لا يستطيع أن يتقن عملاً البتة. ولكن إذا وُجِدَ من يملك التمييز حقاً، فهو للعميان دليل، وللذين في الظلمة نور (رومية 19:2)، وعلينا أن نَكِلِ إليه كل أمرنا، ونرحب بكل ما يصدر منه، حتى وإن لم نر ربما، بسبب ضعف خبرتنا، بحسب رغبتنا.

ويعرف صاحب التمييز بمقدرته على أن يبلّغ كلامه للرافضين وغير الراغبين. فالروح يسبُر، والإلهيات تتجلي وبإمكانها، عندئذ، أن تُلجِئَ إلى الإيمان الذهن الرافض؛ كما جرى ذلك ليونان (يونان 3:1) وزكريا (لوقا 18:1) وداود اللص الذي منعه الشيطان عن الكلام خارج الترنيم الليتورجي. ربما لا يوجد الآن من هو أهل للتمييز في هذا الجيل، لأننا نفتقر إلى التواضع الذي يولده. علينا – بحسب الرسول – أن نجهد في الصلاة لأجل كلٍ من تصرفاتنا (يعقوب 16:5). فإذا لم تكن أيدينا مقدّسة، ولم نكن أنقياء النفس والجسد، فلنحاول، أقلّهُ، أن ننفض عنا الحقد والأفكار. وهذا ما كان يقوله الرسول: "علينا أن نرفع أيدياً طاهرة، من غير غضب ولا خصام" (1تيموثاوس 8:2). إذا رأينا أن ثمّة شيئاً منذوراً لله، فلنفعله بلا هوى. حتى وإن لم يُجْدِنا نفعاً كبيرا، فالنعمة، عندما نفعله، تحوّله لخيرنا، بسبب جهلنا وابتغائنا وجه الله. نتألم، ولكننا ننفّذ المشيئة الإلهية – كما قيل– وذلك، بلا مراء، بفضل لطف الله فقط.

ولكن حيثما الرغبة الخاصة، لا المشيئة الإلهية، فهناك الكبرياء، ويُحجم الله آنذاك عن البركة وعن كشف مشورته. فإذا عرفنا ولم نفعل، فدينونتنا أعظم، لأن ما يجود به الله علينا وما يحجبه عنّا إنما هو لخيرنا، حتى وأن كنّا، كالأطفال، نجهله. إنه لا يُرسل روحه القدوس إلى الذي لم يُنِقِّ ذاته من الأهواء، بأعمال الجسد والأعمال الأدبية، لئلا ينال الروح القدس مثل هذا الإنسان الجانح، بدافع العادة، إلى الشهوات، وهو لا يزال بعد مذنباً. ولكن إذا دوامنا على الرياضية، ونقينا جسدنا أوّلاً من كل الخطايا الفعليّة، الصغيرة والكبيرة، ثم نقّينا بعد ذلك نفسنا من كل اشتهاء وكل غضب، وإذا وجّهنا حياتنا كلّها شطر العادات الحسنة، مجانبين كل ما يمرّ بالحواس الخمس ويتصدّى لمشيئة الذهن، إذا لم نَنْقَدْ لشيءٍ من هذا ضمن الإنسان الباطن، وأخضع الإنسان ذاته لذاته، عندئذٍ يُخْضِعُ الله له كل شيء بنعمة الروح القدس، وعن طريق **اللاهوى**.

فإنه لا بدّ له أوّلا من أن يخضع لسُنَّة الله. ربما أنه خليقة ناطقة، فهو يطوّع ما بيده بحيث يتمكّن الذهن من أن بفرض سلطته، كما كان دأبه يوم أقيم في البدء، ويصبح مملكةً حكيمةً عفيفة، قويّة وعادلة؛ فتارة يلطّف الحميّة بعذوبة الشوق، وتارة يهدِّئ الشوق بفورة الحميّة. ويعلم الذهن أنه ملك، وأنه يسوس جميع أعضاء الجسد بحسب أمر الله، وأنه لم يبق، كما في السابق، فريسة النسيان والجهل. وإذ قد **أنقطع** إلى الله، فقد أصبح بصيراً، وبدأ يتحسّب للفخاخ التي يُعِدّها له الشيطان، وهذا ما يضمره ويدبّره له ليصطاده.

ولكنه لا يرى المستقبل بعد كالأنبياء، فهذا يفوق الطبيعة، ويجود به الله لأجل الخير العام. وأما البصيرة فهي [صفة] طبيعيّة، إذا استبدّت بها الأهواء بدت غارقةً في الدياجي، حتى وإن كان **الذهن** في حالة نقاء. فمن خلال التواضع تُقْبل النعمة، إذ ذاك، لتفتح عيني النفس التي أعماها الشيطان؛ ويبدأ الإنسان يرى الأشياء في طبيعتها، ولا يظل، كما في السابق، مفتونا بالرؤية الخارجية. مثل هذا الإنسان لا تستهويه رؤية الذهب والفضة والحجارة الكريمة، ولا يُغْوى ولا يقيم مقارنات يوحيها الهوى، بل يعلم أن هذه الأشياء تخرج من الأرض، ككلّ مادة أخرى في العالم، كما يقول الآباء القديسون. ويرى الإنسان فيعلم أنه من التراب وإلى التراب يعود (تكوين 19:3)، ولكنه لا يتوقف عند هذه الفكرة، لأن الأنام أجمعين يعلمون ذلك بالخبرة، ولكن الشهوات تستبدّ بهم والأشياء تجرفهم.

إذا كان ثمة مغرور يتوهم الوصول إلى رؤية الأشياء في طبيعتها من غير أن يجتاز أولا بالمشقات والفضائل، فما من عجب. فالغرور يُعمي المتوهّمين أنهم يبصرون، ويدفع بالأغبياء إلى التبجّح باطلاً. فلو تيسّرت رؤية الأشياء في طبيعتها بمجرّد الفكر، لما بقيت حاجة إلى الكآبة ولا إلى التنقية التي تولدها، ولا إلى ألوان المجاهدة الكثيرة والتواضع والنعمة العلويّة **واللاهوى**. ولكن الواقع هو غير هذا، بل هو العكس. فَتَيَسُّر الرؤية هو غالباً من حظ البسطاء جداً، ذوي الروح البريء من أمور العالم وخباثاته، إذا قُدِّرَ لهم أن ينقادوا لذي خبرة، أي لأب روحي. وقد يُعْطَوْنَ ذلك أيضاً، بحسب رأي القدامى، بتدبير من النعمة، وحتى من قبل أن يميّزوا يمينهم من شمالهم، كما يقول سليمان (3 ملوك 7:3). بيد أنه من المتعذّر كبت الشهوات منذ الصغر، ومكافحة كل خبيثٍ وكل غشّ، مكافحةً حازمةً بالرياضة، والنجاة من هذه الآفات والفوز بالرؤية، من غير أن نبذل في ذلك الجهد والوقت، وبدون نعمة الله.

بانتظار ذلك، علينا أن نحبّ اقتناء الفضائل ونعكف عليها بحرارة، عملاً وقولاً. وحتى، في هذه الحال، تبقى جهودنا غالباً بلا جدوى، لأننا إما لا نحتمل التجارب حتى النهاية، وإما نجهل الطريق والغاية، عن كسل أو نُكولٍ أو لأسباب أخرى لا عدّ لها. فإذا بلغنا، بعد وقت كثير،ما هو فوق القياس، كيف نجرؤ على القول إننا انتهينا إلى الجمال القديم؟ أفلا نكون في ضلال، مراعاةً لذواتنا ولهلاكنا الخفي؟ فكما أن تأنيب النفس هو تقدّم خفي يفضي بناء من غير أن ندري، إلى الطريق المستقيم، كذلك الغرور والمداهنة هما هلاك خفيّ لأننا نرجع القهقرى ونحن لا ندري. وهذا بديهي: فالنفس الغريرة، تعاودها الشهوات دائماً، بعد تنقيتها بالنعمة. وهذا ما يقوله الرب: "إن الروح النجس، إذا خرج (لوقا 24:11) الخ...". لماذا؟ لأن الموضع الذي خرج منه [الروح النجس] لم يكن فيه عمل روحي ولا تواضع. فإذا داهمته ثانيةً آفات أخرى، رجع من العبوديّة التي كان أسيرها، وأعاد بناء مسكنه. فمن استطاع الفهم فليفهم!

كلام الله لا يتوخّى إبراز كل شيء إلى النور، ولا إبقاء كل شيء في الغموض، بل يفعل ما يجدي. وهذا فضل كبير من أفضال الله علينا – يقول يوحنا الذهبي الفم – أن تكون في الكتب الإلهية نصوص واضحة وأخرى غامضة. فالنصوص الواضحة، تفضي بنا إلى الإيمان والحرارة، فلا نقع في الكفر والزنى إذا كان كل شيء مبهماً، وأما النصوص الغامضة فتهيب بنا إلى البحث والاجتهاد، فَنُنْقَذُ من اليأس ونظفر بالتواضع النابع من عجزنا عن الفهم، بوسائلنا الذاتية.

وهكذا، إذا أدركنا ما نُعطاه، جنينا الثمار من هذه وتلك: أي التواضع والشوق إلى الله. هذه الضمانة، توفّرها لنا المشاهدة الخامسة، التي نحن بصددها الآن: وهي أن العمل يمكننا من رؤية الخلائق الحسيّة، وأن التمييز يستطيع أن يكشف لنا الأفكار، وأن ليس هناك من وهمٍ يمكنه أن يدعنا في الجهل. فنحن بالرغم من ارتهاننا للشهوات، لا نستطيع أن نعمل بعد شيئاً يخالف القصد

الإلهي، ولا أن ننقاد للأفكار. ولا نحيد بعد عن القصد الإلهي، لا قولاً ولا عملاً، حتى ولو أشرفنا على الموت. وهذا ما يقال في المرحلة الأخيرة من المعرفة.
وأمّا في بدايتها، فالتلميذ بعيد، حتماً، عن الهدف. فهو مغلوب على أمره، إن لم يكن على صعيد العمل، فعلى صعيد العادة. فتارةً بداية زلّة يسمح الله بها ثم يتوب عنها حالاً بتواضع كثير؛ وتارة موقف متعجرف يُمليه الغرور، فعليه عندئذ، أن يعلم أن النعمة التي تعلّمه (تيطس 2:11-12) تلقنه التواضع، فيعرف من أين ينال القوة والعلم، فل نتكل بعد على أنفسنا – كما قيل – بل على الذي يُقيمنا (2 كورنثوس 1:9).
وهذا ما يحدث هنا. فإذا ثبتنا في التواضع والعكوف على الفضيلة، نهضنا من موت الجسد والأشياء، لندخل في معرفة الكائنات، وعندئذ يصلب الإنسان (رومية 6:6)، كما يقول – الرسول – يُصلب في جسده، بأعمال الجسد، وفي نفسه بعمل النفس.
عساه يدفن (رومية 4:6) هكذا بموت الأحاسيس والمعرفة الطبيعية، ينهض بالروح، **باللاهوى** في المسيح يسوع ربنا، له المجد والقدرة إلى الدهور. آمين (1بطرس 11:4).

الحديث الثاني عشر

دونك حرف اللام، والحديث الثاني عشر، وهو يبيّن خبرتنا للخلائق الحسيّة ومشاهدتها. لئّلا يبحث أحد بحثاً في غير وقته. والآن' أيها الآب، بارك البداية.
ما دام **الذهن** لم يمت عن الشهوات، لا يحسن به الدخول في مشاهدة المحسوس. فإذا استسلم الإنسان للتشتت، ولم يعكف على درس الكتب الإلهية، في المعرفة **والسكينة**، أعماه النسيان وغشيه الجهل رويداً رويداً حتى وإن بلغ معرفة **الذهن**، وخصوصاً إذا لم تأته هذه المعرفة بالنعمة، وهذا ما يجهله لأنه إنما تلقن هذه الأسرار تلقنا، بالقراءة والاستماع إلى ذوي الخبرة.
وكما أن الأرض– خصوصاً إذا كانت طيّبة– تغشاها الأدغال إذا أهملها المزارع، كذلك الذهن يثقل ويقع في الجهل، إذا لم يعكف على الصلاة والقراءة، ولم يجعل من ذلك شغله الشاغل وكما لا يجدي المزارع نفعاً أن تكون الأرض رطبةً ومغمورة بالشمس، إذا لم يبذرها ويعتن بها، كذلك يتعذّر على **الذهن** أن يفوز بالمعرفة بمعزل عن العمل الأدبي، حتى وإن نال من النعمة كلّ ما يعلمه. ولكنه سرعان ما يضلّ، إذا تهاون ومال، ولو قليلاً، إلى الشهوات. وإذا استسلم إلى الغرور، بطريقة أو بأخرى، فالنعمة تخذله. ولذلك لم يكن الآباء ليتراخوا أبداً في أعمال النفس، حتى وإن فاجأتهم الشيخوخة والمرض، أحياناً كثيرة، إلى الحدّ من أعمال الجسد. فقد كان المرض يقوم عندهم مقام أعمال الجسد، ويهيّئ أجسامهم الناحلة. من المستحيل إذا بدون العمل الأدبي، أن نحرز النفس من الخطيئة لكي يستنير الذهن. فالمزارع يبدّل كثيراً أدواته أو يصلحها، ولكنّه إذا أراد أن يأكل من جني الأرض، فهو لا يتركها بائرة بلا بذارٍ ولا غراسٍ ولا حمايةٍ لغلتها (2 تيموثاوس 6:2).
وإذا أبى سارق أو لص أن يدخل من هذا الباب، بل يتسلق من مكان آخر– كما يقول الرب – فالخراف (أي الأفكار، الإلهية، بحسب القديس مكسيموس) لا تسمعه. اللص لا يدخل إلا ليسلب بتأويلاته ويبذخ باستعاراته، لأنه لا يستطيع أن يرفض الكتاب المقدس. فبغروره وزيف معرفته يهلك ذاته ويهلك أفكاره معه. وأما الراعي فيتألم مع أفكاره، ويجاهد، في سبيل المسيح، الجهاد الحسن (2 تيموثاوس 3:2)، الذي يتحدّث عنه الرسول، متقيداً بالوصايا الإلهية. إنه يدخل من

الباب الضيق (متى13:7)، أي من باب التواضع الذي يؤدي إلى **اللاهوى**. وحتى من قبل أن يُعطى النعمة من العلاء، يواصل الإصغاء إلى كل شيء وتعلم كل شيء. وكل مرّة يُقبل ذئب بثوب نعجة (متى15:7)، يطرده منحياً باللائمة على ذاته ويقول: "لا أدري من أنت: الله يعلم". وعندما يراوده فكر وقح، ويطلب أن يقبله قائلاً: "إذا لم تضبط الأفكار ولم تميز الأشياء، فلا إيمان لك، بل الجهل نصيبك"، يجيبه قائلاً: "وإن كُنت جاهلاً، بحسب زعمك، فأنا أعلم مع الذهبي الفم، ذاك القديس الإلهي، أن من كان جاهلاً في هذا العالم فهو حكيم. وهذا ما يقوله الرسول (1 كورنثوس 18:3).

ويؤكد الرب أيضاً أن أبناء هذا الدهر أفطن، وسط جيلهم، من أبناء ملكوت السماوات (لوقا 8:16). وهذا بديهي. فهناك من يشتهون الاستعلاء والإثراء ورجوح الرأي والإطراء والتسلط وما شابه ذلك، حتى وإن رجح فشلهم وذهاب تعبهم أدراج الرياح؛ ولا غرو، فهم يتعلقون بهذه الأمور إلى أبعد مما يطيقون. وإنما هناك أيضاً من يرومون غير ذلك تماماً، فيحظون غالباً، في هذه الدنيا، بعربون السعادة الأخروية. إنهم يركزون **ذهنهم**، ولو على حسابهم، في التماس الحريّة من النعمة، فيتمكن **الذهن** من أن يحرز ذاكرة لا يشوبها نسيان، ويصبح عندئذ أمام احتمالين: فإما أن يعرف الأفكار المشهود لها في الكتب الإلهية وعند ذوي الخبرة في المعرفة الروحية، وإما أن يجهلها، على ما يملكه من معرفة واسعة، فيبقى في الانتظار، عالماً أن الأفكار الواردة قبلاً هي من صنف التجارب التي يتم بها امتحان الحريّة.

ومن ثم، فالمتواضع يرجع أدراجه ويصبح غير واثق بفكره وهدفه، بل يهاب ويستشير، ببكاء كثير، ويلوذ بالتواضع وتذنيب الذات. ويحسب المعرفة والمواهب ضرراً كبيراً. وأما المتكبر فينبري يباهي بأفكاره، ولا يصغي إلى يوحنا السلمي يدعو إلى عدم البحث، قبل الأوان، عن الأمور الآتية في أوانها الخ... ولا يصغي أيضاً إلى القديس اسحق يعلمنا ألاّ ندخل بوقاحة إلى الداخل، بــل أن نؤدي الشكر صامتين؛ ولا إلى يوحنا الذهبي الفم القائل، بتلقين من الرسول: "لا أعلم"!. ولا إلى يوحنا الدمشقي القائل، في شأن آدم: إنه لم يحن له الوقت ليسلك في مشاهدة الروحيات، لأن حواس الأطفال لا تطيق الطعام القوي، وإنما يصلح لهم اللبن، على حدّ قول الرسول (1 كورنثوس 2:3؛ عبرانيين 5 :12-13).

فلا يلتمسنَّ إذن المشاهدة، إذا لم يحْنِ وقت المشاهدة، بل فلنحرزْ أولاً ذواتنا أمهات الفضائل فتقبل المعرفة من تلقاء ذاتها بنعمة المسيح، له المجد إلى الدهور. آمين.

الحديث الثالث عشر

إليك حرف الميم ويتناول الحديثُ الثالثَ عشر هنا معرفة الكائنات الروحيّة؛ أي مراتب الأذهان اللاجسدية. من يَرَها يعرفْها من علاماتها الحسية. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

تأتي المعرفة الروحيّة من بعد أن نكون قد تعوّدنا مشاهدة الحسيّات. ولكنَّ ما يحظى العارف برؤيته ليس ملاكاً. وكيف يستطيع إنسان لا يرى حتى نفسه، أن يرى خليقة لا مادية لا يعرفها إلا الخالق وحده. لقد ظهر الملائكة مراراً لآبائنا بهيئة، وإنما في سبيل الخير العام وبعناية ربّانية. ولكن ذلك لا يتمُّ لنا، لأننا نتوخّاه عن غرور، لا اهتماماً للخير العام، ولان ابتلاءاتنا ليست إلهيّة.

ولذلك فمن يطلب مثل هذه الرؤية، إنما يرغب في رؤية الشيطان يتزيًّا – كما يقول الرسول – بزيّ ملاك نور (2 كورنثوس 14:11). ولكن عندما لا نفكر قطُّ بهذه الأمور، ولا نعتقد حتى بإمكان حدوثها، فهي تحدث عندئذٍ، الأمور، بشرط أن نحظى بها لخير الجميع.
من هنا تمرُّ إذن المعرفة: وشرطها ألاّ نبتغي، ولو بالحلم، أن ننال مثل هذه الرؤية، ولا نتولى أمرها إذا أُعطيناها، بل نبقى في شبه غفلةٍ عما نحن فيه، لأن الملاك الحقيقي يملك، من لدن الله، القدرة على طمأنة الذهن الرافض له ليقبله.
وأما الشيطان فيعجز عن ذلك، فإذا رأى **الذهنَ** مستعداً لاستقباله، سُمح له بإظهار نفسه، وإلاّ رجع أدراجه طرداً على يد الملاك الذي، منذ المعمودية الإلهية، يَحْصِن الذهن من النكوث بالحريّة. تلك هي الأمور. وإنما علينا أن نحصر حديثنا في مشاهدة المراتب العلويّة. فهي تسع، بحسب ديونيسيوس الكبير، ونجدها في جميع الكتب المقدسة. والمراتب التسع مسماة **طبقاً لطبيعتها وعملها. نسميها "لا جسدية" لأنها منزهة عن المادة؛ وعاقلة لأنها أذهان؛ وجنوداً** (لوقا 13:2) **لأنها هي الأرواح** في خدمة ملك الكون (عبرانيين 14:1). ولها أيضاً أسماء أخرى عامة وخاصة. يسمونها، مثلاً، **قوات** (أفسس 21:1؛ 1بطرس 22:3؛ متى20:1)، **وملائكة** (أفسس 21:1؛ 1بط22:3؛ متى20:1)، وهو أيضاً اسم إحدى المراتب. وأما بشأن عملها، فنسمي المراتب التسع قوّات، لأنها تقدر أن تحقق جميع الرغبات الإلهية. فالملائكة هو الاسم الخاص لمرتبة واحدة، الأولى انطلاقاً من عندنا، والتاسعة نزولاً من العرش السامي. وأما في العمل، فنسمّي ملائكة كل الذين ينبئون الناس بالأوامر الإلهية. ويقول سليمان في سِفرِ أيوب، إنَّ ملاكاً آخر جاء أيوب، لم يكن من مرتبة الملائكة القديسين. ويقول يوحنا الذهبي الفم إنه أفلت وحده وجاء ليخبر. وينبئنا الكتاب المقدس، في غير موضع، أن الرب نفسه سوف يأتي بهيئة ملاك (أشعيا 6:8). وكتب عن إبراهيم أيضاً أنه استضاف ملائكة (عبرانيين 12:13). ويقول يوحنا الدمشقي، في نشيد إلى أمّ الله: إن الرب كان هناك قبل التجسد: "في خباء إبراهيم تجلّى السر الذي فيكِ، يا أم الله، لأنه استضاف ابنك قبل التجسد الخ..". وفي الأتون أيضاً، كان الربّ هو نفسه مع الفتيان (دانيال 25:3). فنظراً إلى هذه الأعمال كلها، يُدعى الملاك ملاكاً، ويسميه النبي أشعيا ملاك المشورة العظيمة (أشعيا 6:9). ويقول الرب نفسه: "ما سمعت من أبي، أقوله لكم" (يوحنا 26:8). له المجد إلى دهر الدهور. آمين

الحديث الرابع عشر

هذا الحديث يحمل حرف النون، ويتناول عموماً **اللاهوى** الحقيقي. إلى الآن أربعة عشر حديثاً لُخصت بنعمة المسيح. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
اللاهوى أمر عجيب غريب. فإذا تمكنا من أن نتغلب على حالة الهوى، بإمكانه أن يحملنا على الاقتداء بالله، على قدر ما يستطيعه الإنسان.
إذا تعذب **المنزّه عن الهوى** وقاومه الشياطين والأشرار، فهو يحتمل كل شيء وكأنه في جسم آخر، كما فعل الرسل القديسون والشهداء. فإذا مُجِّدَ، لم يتكبر وإذا أُهينَ لم يتكدر: يحسب الشيقات نعمة وعوناً من الله فوق ما يستحق، والمشقات امتحاناً. الشيقات نُعطاها بنعمة، ههنا، لتعزيتنا،

والمشقات للتواضع والرجاء الصالح في الدهر الآتي. قدرته على التمييز توليه السكون وسط الأحاسيس المؤلمة.
اللاهوى ليس فضيلة واحدة، بل هو اسم جميع الفضائل.فكما أن الإنسان ليس عضواً واحداً، بل يظهر من خلال أعضاء الجسد كلها، وليس هو الأعضاء فقط بل النفس أيضاً، كذلك **اللاهوى** هو جُملة فضائل كثيرة، والروح القدس هو لها بمثابة نفس. فكل ما نسميـــه بالأعمال الروحية لا نفس له إذا خَلَت هذه من الروح القدس الذي به يُدعى الإنسان الروحي روحياً. فإذا لم تَطَّرَح النفس الأهواء، لا يُقبِل الروح القدس إليها. وليس بدون الروح القدس أيضاً، تُدعى هذه الفضيلة الشاملة **لاهوى**. **فالخليّ من الهوى**، بدون الروح القدس، إنما هو إنسان خليّ من الحس. وذلك يقول الإغريق الذين يجهلون هذه الأمور: لا تكن **عديم الهوى** كمن لا نفس له، ولا شهوانياً كمن لا عقل له. فبقولهم "عديم الهوى كمن لا نفس له"، كانوا يتكلمون كما يعلمون، لأنهم كانوا يملكون معرفة الروح القدس. فإن يكون الشهواني بلا عقل، فهذا ما نقوله أيضاً؛ ولكننا لم نتلقن ذلك منهم، لأن ليس عندهم معرفة ولا خبرة. ولأننا بلونا بالخبرة تحكّم الأهواء فقد تعلمنا من أين تأتي الآلام. ولأننا تعلمنا ذلك من الآباء الذين أكرموا بنعمة اللاهوى، فنحن نكتب كيف نحرز الفضائل. فالآباء يقولون عن الشهواني، أي الإنسان المجروف كليّاً بعشق الشهوات، إنه شبه أسير لا إحساس له. فهو تارة بهيمة عجماء يستسلم لنوازع الشهوة، وتارة تأخذه الحميّا فترتوي بها شهوته فيصرف أسنانه على أشباهه صريف وحش ضارٍ.
بمحبة الله الكاملة إذن يتوصل **الخليّ من الهوى** إلى السيطرة على الشعور، فتارة يتحدث إلى الله، وطوراً يشاهد عجائبه ويتأمل في كلمةٍ من الكتب الإلهية. "حتى وإن كان وسط الجمهور وفي قارعة السوق – يقول القديس نيلوس – فذهنه يبقى في عزلته". هذه الحالة هي ثمرة التقيّد بوصايا المسيح الإلهية. له المجد والقدرة إلى الدهور. أمين.

الحديث الخامس عشر

حفظ الوصايا الإلهية هي علامة محبة الله والقريب. هذا الحديث موضوعه المحبة، وحرفه السين، وهو الحرف الخامس عشر. فالمحبة هي بداية الناموس ونهايته(رومية 11:13). والآن، أيها الآب، بارك البداية.
من رام التحدُّث عن المحبة، أقدم على التحدث عن الله. "الله محبة – يقول يوحنا اللاهوتي– من أقام في المحبة أقام في الله" (1 يوحنا 15:4). فيا للعجب!
هذه الفضيلة الأساسية بين الفضائل طُرًّا، هي خصلة طبيعية ولذلك ذكرها الناموس في الطليعة: "أحبب الرب إلهك (تثنية 5:6) الخ...". ولكن عندما سمعت أنه لا بدَّ لي من أن أحبه تعالى بكل نفسي، خرجت من ذاتي، ولم أبق بحاجة إلى الكلمات الأخرى. "بكل النفس"، معناه: بالعقل والحرارة والشوق. وهذه الثلاثة هي من مزايا النفس. فالذهن يتأمّل دائماً في الأشياء الإلهية. والشوق لا يتوخى أبدا سوى الله وحده ولا شيء سواه، ما دام الناموس يقول: "بكل النفس". وتتصدى الحرارة، بطريقة فطريّة فقط لما يحول دون هذا الشوق. لقد كان يوحنا اللاهوتي إذن على حقٍّ كبير، بقوله: إن الله محبة.
عندما يرى الله قوى النفس الثلاث شاخصة إليه، وليس لها من رغبةٍ إلاّ فيه، بحسب أمره تعالى، فلا محالة أنه، في لطفه، لن يكتفي بأن يبادل الإنسان حبه، بل سيقيم فيه ويقبل إليه (أحبار

12:26-13؛2 كورنثوس 16:6)، كما قيل – عند مجيء الروح. وأمَّا الجسد الذي يرفض ويأبى – لأنه يفتقر إلى العقل – فسوف يخضع في النهاية، لكلمة الله، ولا يظلّ الجسد يشتهي ما يخالف الروح، على حدِّ قول الرسول (غلاطية 17:5).
ولكن كما أن الشمس والقمر – مع انتفاء النفس عنهما – ينيران، بأمر الله، العالم الأرضي، كذلك الجسد، بإمرة النفس، يعمل أعمال النور. وكما أن الشمس كل مرة تسير مسارها من الشرق إلى الغرب تُحدث نهاراً وبغيابها تُحدث الليل، كذلك كل فضيلة تُزيّن الإنسان تنير نفسه، وغيابها شهوة وظلام، إلى أن يستردها الإنسان ثانية فيطلع النور. وكما يكتمل الزمن بطلوع الشمس من قلب المشرق، وانتشار أشعتها شيئاً فشيئاً حتى الطرف الآخر من السماء، كذلك ينمو الإنسان شيئاً فشيئاً من مصدر الفضائل إلى أن يدرك حالة اللاهوى. وكما ينمو القمر وينقص كل شهر، كذلك كل فضيلة تنمو أو تنقص كل يوم إلى أن يمتلكها الإنسان امتلاكاً كاملاً. فتارة يكتئب أمام الله، وتارة يجذل بشكره تعالى، وإن لم يكن أهلاً للفضائل. تارة يكون في النور، وتارة في الديجور إلى أن يُنهي الطريق. وتسمح العناية بهذه الأمور، بعضها للحدّ من الغرور، وبعضها الآخر للحدّ من اليأس. فكما أن الشمس، في الدهر الحاضر، تدور دوراتها، والقمر ينمو وينقصُ، وكما أن النور، في الدهر الآتي، هو أبداً نصيب الأبرار، والظلمات – ويا للأسف! – هي نصيب الخطأة أمثالي، كذلك الآن ، قبل المحبة الكاملة والمشاهدة الإلهية، تكون النفس غارقة في التحوّلات والذهن في الظلمات، وتختلط التحوّلات والظلمات بالفضائل والمعارف، إلى أن يُعطى الإنسان عمل الدهر الآتي، عبر المحبة الكاملة، ثمرة كل جهده.
فالمحبة هي التي تمكن المُطيع من الإصغاء إلى ما يُؤمر به؛ بالمحبة يغدو فقيراً وخادماً، من كان غنيَّاً وحرَّاً، ليبذل ما لديه بل ليبذل ذاته لمن يشاؤون ذلك. وبدافع المحبة أيضاً نصوم، ليتمكن آخرون من تناول الأطعمة التي كان علينا أن نقتات بها. كل عمل يتم إذن حبَّاً بالله أو حبَّاً بالقريب. فالأمور التي جئنا على ذكرها وما يشبهها، نقوم بها حبَّاً بالقريب. وأما السهر وترتيل المزامير وما يضاهي ذلك، فنقوم بها حبَّاً بالله، له المجد والإكرام والقدرة إلى الدهور. آمين

الحديث السادس عشر

إليك باختصار، حرف العين والحديث السادس عشر في معرفة الله؛ فاللاهوت، كثيرون تكلَّموا فيه، ضمن قوانين كثيرة. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
كل ما يصنعه الله له بداية، وكل شيءٍ، إذا شاء، له نهاية. ولا غرو، فكلُّ شيءٍ خلق من عدم. وأما الله فليس له بداية ولا نهاية. وكذلك صفاته، لأن الله لم يُوجد قطّ بدونها. فهو دائماً كلّي الصلاح والإنصاف والحكمة والقدرة، لا يُقهر ولا يتقلّب، لا نهاية له ولا حدود، لا يُسبر ولا يُدرَك، لا انتهاء له، أبديٌّ، غير مخلوق، لا يتحرَّك ولا يتغيّر، حقٌّ، بسيط، لا يُرى ولا يُمسَّ ولا يُكتَنه، كامل، فائق الجوهر، لا يوصف، لا يُفهم، كليُّ الرأفة، يفيض حبًّا ورحمة، يملك على كل شيء، يرى كل شيء. ويقول ديونيسيوس الكبير:"إن الله يملك هذه الفضائل، ولكنه ليس مضطراً إلى العمل بكلٍ منها، كالفضلاء من الناس، بل يحقق كل فضيلة بمحض مشيئته، وفي قدرته، يستعملها كأداةٍ بطريقة حرَّة.
الملائكة وأهل الفضيلة نالوا إذن من نعمة الله، مع الوجود، الفضائل التي مكَّنتهم من الاقتداء به تعالى، فاصبحوا أبراراً صالحين حكماء. ولكنهم خلائقه، ويحتاجون الى مؤازرة سيد الكون ودعمه، وبدونه لا يستطيعون أن يملكوا فضيلة أو حكمة. فالخلائق متقلّبة بالفطرة، وتدعى

"مُرَكّبة" لأنها مؤلفة من عناصر متنوّعة. وأما الله فلا جسد له، بسيط، أزليّ، إنه الله الأحد، نسجد له وتمجّده الخليقة طُرًّا، في الآب والابن والروح القدس. من يقتدِ به، لا يملك سوى رغبة واحدة، وليس مركّباً من رغبات كثيرة. ذهنه بسيط، يتوخّى دائماً قدر استطاعته، ما لا شكل له، وينتقل عفوياً وبمؤازرة العناية الإلهية، من اللاشكليّ على تأمل الكتاب المقدّس أو الخلائق.
ولئلاّ يُدان، فه ويُعنى بجسده، لا رغبةً في إنجاب الحياة، إرضاءً لذاته، بل لئلاّ يكون عديم الفائدة كليًّا؛ وإلاّ فهو يقع - كما قلنا- تحت طائلة الدينونة. فكما أن الذهن لا ينبذ الميول المحدِقة به، بل يستعملها استعمالاً طبيعياً، كذلك النفس لا تنبذ الجسد، بل تستعمله لكل عمل صالح. وكما أن الذهن يسيطر على نزوات الميول الجامحة، يوجّه كُلاً منها شطر الإرادة الإلهّية، كذلك يسيطر الإنسان على أعضاء الجسد، لتصبح إرادة واحدة لا إرادات، ولا يدع أيًّا من عناصر الجسد الأربعة ولا أيًّا من أعضائه يتصرَّف على هواه. كما أنه لا يدع قوى النفس الثلاث تفكّر أو تحرّك الجسد، بلا تفكير ولا نظام، بل يتنبَّه لكل شيء بالحكمة الروحيّة، جامعاً القوى الثلاث في أرادة غير منقسمة.
هذه الحكمة، لها أشكال أربعة: الفكر، العفة، الشجاعة، العدل. وقد كتب فيها غوريغوريوس اللاهوتي مصنَّفاً راقياً جداً، في المسيح ربنا، له المجد والعِزَّة إلى الدهور. آمين

الحديث السابع عشر

دونك الآن الحديث السابع عشر في إحدى الفضائل العامَّة. لقد وصلنا إلى حرف الفاء. والتروّي هو أولى الفضائل الأربع. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
من أراد أن يتعلم من اللاهوتي كل ما له علاقة بالفضائل الأربع العامَّة، لن يجد في ذلك صعوبة. وسنقتصر منها، هنا، على القليل.
كل فضيلة بحاجة إلى هذه الفضائل الأربع. وكل عمل بحاجة إلى الفضيلة الأولى، أي التروّي، ولا شيء يتم بدونه. ما نفعله، كيف يمكن أن يتمّ بدون التروّي؟ والتروّي وليد الفكر، وهو في منزلة وَسَطٍ، بين الدهاء، وهو شكل من أشكال الكبرياء، والبلادة. فالدهاء يجذب العقل إلى فوق، ليؤذي ويُثخن نفوس أصحاب هذه الفضيلة، وبوسعه أن ينال منها. وأمّا البلادة، فهي تجعل الإنسان بلا إحساس ولا جدوى، ولا تدع الذهن يواظب على الأمور الإلهّية، ولا على أي شيء يمكن أن يُنجدَ النفس أو القريب. المكر يشبه قِمَّة شاهقة، والبلادة وهدةً عميقة.
من سلك طريقه في السهل، بين هذا وتلك، كان متروّياً. وأمّا من حاد عن الطريق، فنصيبُه إما أن يسقط في الهوّة، وإما أن يحاول التسلّق إلى القمة؛ فإذا لم يجد إليها طريقاً، وقع مُرغماً في الهاوية، وعجز عن النهوض، بسبب رفضه الإقلاع عن ذرى الجبل ليعود بالندامة إلى التروّي. ولكنْ، متى وقع الإنسان في الهاوية، عليه أن يتضرّع باتضاع إلى القادر أن يعيده إلى الطريق السلطاني، طريق الفضيلة.

الحديث الثامن عشر

الصاد هو الحرف الثامن عشر. ويتناول هذا الحديث موضوع العِفّة. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

العِفّة شعور متكامل لا ثغرة فيه. من امتلكها، لا تدعه ينجرُّ لا إلى العَهَر ولا إلى الخمول، بل تحافظ على منافع التروّي، وتنبذ جميع المساوىء، وتستقطب الفكر، ومن خلاله تقود الإنسان إلى الله. والعفّة، كالراعي الصالح، تحشد النعاج في الداخل، أي الأفكار الإلهية. وبانصرافها عن كل أسباب الأذى، تقتُل العهرَ كما تُقتل الكلاب المستكلبة، وتطرد الخمول كما يُطرد الذئب الضاري، ولا تدعه يفترس الأغنام في العزلة، بل لا تكفُّ عن ترصّده والتنديد به أمام العقل، لئلاّ يتمكّن من التستُّر في الظلام ومخالطة أفكاره.

والعفّة وليدة اشتياق النفس، بدونها لا نستطيع أن نحتفظ بشيء صالح أيًّا كان ما أحرزناه. فإن لم تكن لدينا العفّة، فنحن بين محذورين: فإمّا أن نتمادى في رفع أجزاء النفس الثلاثة، وإمّا أن نهبط بها إلى أسفل، فنعرّضها إمّا للخمول وإمّا للعهر. والعهر الذي أتحدَّث عنه لا يمتُّ فقط إلى الشره أو إلى الزنى، بل إلى كل شهوة وكل فكرٍ لا يتوجَّهان طوعاً إلى الله. العفّة تشذّب كل هذه الرذائل، وتكبح كل ما في النفس والجسد من نزوات جامحة، وتقودها إلى الله، له المجد إلى الدهور. آمين

الحديث التاسع عشر

إليك حرف الصاد. ويتناول هذا الحديث موضوع الشجاعة؛ وهو الحديث التاسع عشر. وتولد الشجاعة من الحميّة، وهي في الوسط بين الوقاحة والجبانة. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

الشجاعة ليست مزيّتُها التغلُّب على القريب والتنكيلُ به. فذلك وقاحةٌ تستهدف ما هو فوق الشجاعة. وليست مزيَّة الشجاعة أيضاً الفرار خوفاً من التجارب، بعيداً عن الأعمال والفضائل الموقوفة لله. ذلك جبانة تستهدف ما هو أدنى من الشجاعة. مزيَّة الشجاعة المواظبة على كل عمل صالح، والتغلب على ميول النفس والجسد. فنحن لا نقاوم الدم واللحم، أي البشر، كاليهود قديماً. فالمنتصر في المعارك على الشعوب الأخرى، في ذلك الزمان، كان يتوهم القيام بعمل الله. وأمّا نحن فنصارع السلطات والقوات، أي الشياطين غير المنظورين. وغلبتنا اليوم روحيّة، وإلاّ فالغلبة للأهواء علينا.

المعارك البشرية هي صورة جهادنا. وهاتان الشهوتان – أي الوقاحة والجبانة – باعثهما الضعف. وإن بدا أنهما على طرفي نقيض. فالوقاحة تجذب إلى فوق، بغية التهويل والتشويش، كما يفعل دبٌّ عاجز. وأمّا الجبانة فتهزم مثل كلب مطرود. وما من إنسانٍ مبتلىً بإحدى هاتين الشهوتين، يضع رجاءه في الله؛ بل هو أعجز من أن يخوض المعركة، ولا يجد لا في الوقاحة ولا في الجبانة ما يُنجده، وأمّا البارُّ، فهو كشبل وعلى المسيح يسوع ربّنا متّكله، له المجد والعزّة إلى الدهور. آمين

الحديث العشرون

الحديث العشرون، حرفُه القاف، ويتناول موضوع العدل في كل الفضائل. فالعدل يُقيم قسمةً متساوية، ويولد ثانية من الذهن. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
نُشيد لله بالعدل أيضاً، يقول ديونيسيوس الكبير. بحقّ نُشيد. فإذا انتفى العدل، ساد الظلم، ولم يبقَ لشيء قوام. نسمّيه تمييزاً، لأنه يقيم، في كل عمل، قسمةً متساويةً، فلا يلحق بأي شيءٍ تفريط عن قِلة ولا إفراط عن كثرة. فالتفريط والإفراط وإن بدا عليهما التناقض، يدفعان جزءاً منا في الظلم، لأنهما فوق العدل أو دونه.
الخط المنحني أو المستدير لا يقود توًّا إلى الهدف الصحيح. كذلك المنكِب الذي ينوء تحت النير، يقوى على المنكِب الآخر. من استطاع أن يُقيم العدل في ذاته، عُصِم من السقوط. فلا الجهالة والعهر والجبانة والطمع تجرُّه إلى أسفل، كالأفعى الزاحفة على بطنها، تأكل التراب وترجمها شهوات العار. ولا الدهاء والوقاحة والخمول والفاقة ترفعه إلى فوق، حيث الإنسان، في خبثه، يتكبر أكثر مما يستحق، بل يكون طاهر الفكر، ويحتمل بتواضع، عارفاً أن ما له قد ناله بنعمة، على حدّ قول الرسول، ولا يرفُض (ما يُكرمُ به) لئلا يظلم نفسه والقريب، ولئلاَّ يظلم الله خصوصاً، إذا ادّعى لذاته أعماله القويمة. فإذا زعم أن لديه شيئاً صالحاً، فما يظنّه له يُنزع منه، يقول الرب، له المجد والعزَّة إلى الدهور. آمين

الحديث الحادي والعشرون

دونك حرف الراء. يتناول الحديث الحادي والعشرون سلام الأفكار الكامل، كما ناله التلاميذ من الربّ. لان الله هو الذي جاد به. والآن، أيها الآب، بارك البداية.
قال الرب لتلاميذ: "سلامي أعطيكم". وأضاف: "ولا كما يُعطي الناس". ومعنى ذلك أن الرب لا يعطي كما يُعطي سكان هذا البلد، عندما يُحيّي بعضهم بعضاً، قائلين: "السلام عليكم!"، ولا كما قالت الشونمّية: "السلام عليك". وقال أليشع أيضاً لجيحزي: "قُلْ لها: السلام عليكِ، أي: السلام لزوجك والسلام لابنكِ". فالله يعطي السلام الذي يفوق كل ذهن؛ يعطيه لمحبّيه من كل نفوسهم، باعتبار الجهادات التي قاسَوْها والمخاطر التي اجتازوا بها قبل أن يفوزوا به.
ولذلك قال الرب أيضاً: "يكون لكم بي السلام"؛ وأضاف: "ستُعانون الشدَّة في العالم، فاصبروا لها. لقد غلبتُ العالم". فمهما تتفاقم الشدائد التي تُصيبنا، وتكثر الأخطار التي يوقعنا فيها الأبالسةُ والناس، فمن يحملْ سلام الربّ في داخله يحَسب كل شيء. ويقول الربُّ فوراً: "ليسالِم بعضكم بعضاً"
لقد أنبأهم الرب بهذه الأمور كلها، لأنهم كانوا مزمعين أن يجاهدوا ويكابدوا لأجله شدائد. فعلى كل منا، نحن المؤمنين، أن يجابه، أثناء تنشئته، الميول التي تحاربه وتعثّره. فإذا كان في سلام مع الله والقريب، فهو يلجمها كلها. هذه الأهواء هي العالمَ الذي أمرنا يوحنا اللاهوتي أن نمقته ولا يعني ذلك أننا مُلزمون ببغض الخلائق، بل بالإقلاع عن شهوات العالم. وتكون النفس في سلام مع الله عندما تكون في سلام مع ذاتها، وتكون كلّها لله. وتكون الثمرة هي عندما تُسالِم النفسُ جميع الناس، أيًّا كانت المساوئ التي يلحقونها بها. فهي، في جهلها الشرّ، لا تضطرب لشيء، بل تعذِر كلَّ، وتريد الخير للجميع، وتحبُّ جميع الكائنات، من خلال الله وخلال الطبيعة. وترثي لغير المؤمنين، بسبب هلاكهم، كما فعل الربُّ والرسل. ولكنها تصلّي وتتوجَّع أيضاً لأجل المؤمنين، فتنال، هكذا، سلام الأفكار وتقود الذهن إلى المشاهدة والصلاة النقيّة الشاخصتين إلى الله، له المجد إلى الدهور. آمين.

الحديث الثاني والعشرون

إليك حرف الشين والحديث الثاني والعشرين، وفيه وصف مولد الفرح من السلام. وسوف نقتصر، في ذلك، على القليل. فالفرح روحي أو غير ذلك. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

"افرحوا في الرب" يقول الرسول، ويؤكّد "في الرب"، لأنه إذا لم يكن الفرح في الربّ، فلن نفرح، بل فلن نفرح ربّما أبداً. عندما تأمّل أيوب في الحياة البشريّة، وجدها حُبلى بكل مشقّة. وكذلك باسيليوس الكبير. ويقول القديس غوريغوريوس النيصي إن الطيور وسائر البهائم تفرح في اللاشعور. وأمّا الإنسان الذي ينعم بالعقل ويعرف الكآبة. فهو لا يجنح البتة إلى الفرح، لأننا – كما يقول – لم يُتح لنا معرفة هذه الخيرات التي جُرّدنا منها. وإن تُعلّمْنا الطبيعةُ شيئاً، فالبكاء، لما ترهقنا به الحياة من عذابات ومشقّات، ولما ينوء به المنفى من أوزار.

ولكن إذا حافظنا دائماً على ذكر الله في ذواتنا، فنحن في الفرح مقيمون. وكما يقول صاحب المزامير: "ذكرتُ الله ففرحت". فالذهن الفرحان بذكر الله يسلو شجونَ العالم، وذكر الله يغمره بالرجاء، ويُنقِذه من جميع الهموم؛ وانتقاء الهموم يبهجه ويُبهجه ويُعدُّه للشكر؛ والشكر المعترف بالجميل يزيد العطايا والمواهب، وكلّما تكاثرت الأفضال تنامي الشكرُ والصلاة النقيّة الممزوجة بدموع الفرح، وسكنت دموُع الحزن، وتقلّصت الأهواء، وتخلّص الإنسان من الشهوات؛ فعساه ينتهي هكذا، وعلى كل حال، إلى الفرح الروحي.

في العذوبات يكتشف الذهنُ التواضع ويؤدي الشكر، وفي التجارب، يرسخ فيه رجاء الدهر الآتي. وفي هذه وتلك يجذل، ويحبُّ الله وجميع الكائنات، بطريقة فطريَّة، كمفضلين عليه، ولا يجد في الخليقة كلها ما يمكن أن يؤذيه، بل يستمدُّ من الخلائق كلّها فرحه في الرب، مستنيراً بمعرفته تعالى، ومعجباً برعايته للبرايا. فإذا بلغ المعرفة الروحيّة، أخذه الدهش من الروائع الظاهرة، لا بل الذهولُ لما يوجسه من الخلائق الحتميّة التي لا تظهر للذين تنقصهم الخبرة. وهو لا يُعجب فقط بالنهار وضيائه، بل بالليل أيضاً، لأنّ الليل فيه غياثٌ للجميع: يوفر للفعلة الراحة الأهبة، ويُعيد إلى الباكين ذكر الموت وجهنم، ويؤهّب الذين بلغوا الحياة الخلقية لمزيدٍ من التمعُّن والتعمّق في الأفضال [الإلهية]، وللمحافظة على المناهج. وكما يقول صاحب المزامير: "ما تقولونه في قلوبكم، عودوا إليه في مضاجعكم" أي: عودوا إليه في هدأة الليل، متذكّرين ما ارتكبتم من زلاّتٍ في فوضى النهار، وحاضّين بعضكم بعضاً أن تقضوا حياتكمٍ في الصلوات والتراتيل، بالدرس والمطالعة المتيقظة، فيتمَّ لكم العمل الأدبي. وعليكم السهر على شؤون النهار، ومراجعتها في هدأة الليل لتتمكنوا من البكاء على أخطائكم.

مثل هذا الإنسان، عندما تمكنه النعمة من التقدُّم، ويتّضح له أن الأفعال النابعة من مناقبيّة النفس والجسد تتحقق فيه عبر أعمال وأقوال تطابق وصيَّة المسيح، يؤدّي الشكر في المخافة والتواضع، ويحاول المحافظة على هذه السيرة الحسنة بالصلاة وكثير من الدموع أمام الله، ويحثُّ ذاته على تذكرها دائماً لئلاً يُعيد دفنها في النسيان ويخسرها. فإنه لا بدَّ من بعض الوقت لتتحقّق فينا السيرة الحسنة. وإذا تّمت لنا بعد الكثير من الوقت والجهد، فقد نخسرها في لمحة بصر.

هذا في شأن العاملين. وأمّا أصحاب المشاهدة، فالليل يحمل أيضاً إليهم مشاهدات كثيرة، كما يقول باسيليوس الكبير. فهو يذكّرهم، كلّ مرَّة، بنشأة العالم، عندما كانت البريَّة كلها، في البدء، محجوبةً بالظلمة، ويُريهم كيف كانت السماء، آنذاك، خاويةً لا نجوم فيها، تغشاها سُحب لم يَعد لها اليوم

وجود. فإذا دخل الراهب مخدعة، ولم يبصر سوى الظلمة، تذكَّر تلك الدُجنَّة المخيّمة فوق الهاوية، ولكنَّ السماء، فجأة، تنقشع ثانية. وإذ ينتصب الراهب خارج حجرته، ينذهل لمشهد العالم العلْوي، ويسبّح الله كما سبَّحه الملائكة عندما أبصروا الكواكب، على حدّ ما ورد في سفر أيوب. ويشاهد الأرض أيضاً خاويةً خالية، كما كانت آنذاك، والبشر غارقين في النوم، كما لو كانوا عدماً؛ ويوجس ذاته وحيداً مثل آدم فيسبّح مُبدع العالم، في تلك المعرفة التي يُشارك فيها الملائكة. وإزاء البروق والرعود، يتأمّل كيف سيكون يوم الدينونة؛ ولدى سماعه زقزقات العصافير، يدرك كيف سيكون، في ذلك اليوم، صوت النفير؛ وعندما يطلع كوكب الصبح ونور الفجر، يفكّر في ظهور الصليب الكريم المحيي. وعندما يستيقظ البشر من رقادهم، يتوسَّم في ذلك في ذلك القيامة، ويرى في الشمس مجيء الربّ، ويتأمَّل كيف يقوم البعض للقائها، بنشيد المزامير، كما سيقوم القديسون، آنذاك، ممتطين الغمام، وكيف يتوانى الآخرون ويواصلون الرقاد، كالذين سيُحكَمُ عليهم آنذاك. بعضُهم يُفعَمون فرحاً طولَ النهار، بالتمجيد والمشاهدة والصلاة وسائر الفضائل، ويقضون وقتهم في نور المعرفة، كما سيفعل الأبرار آنذاك؛ وأما الآخرون فيلبثون في الشهوات وظلمات الجهل، كما سيفعل الخطأة آنذاك.

وقصارى القول أنَّ العارف يصيب في كل شيء عوناً لخلاص نفسه ومجد الله؛ لأن كل شيءٍ يأتي من الرب ومن إله المعارف، كما تقول أمّ النبي صموئيل: "لا يفتخر الحكيم بحكته الخ..." فمن أراد الافتخار فليفتخر بفهم الربّ ومعرفته، أي بمعرفة الربَ، بمنتهى الوعي، في خلائقه، والإقتداء به، قدر المستطاع، بحفظ وصاياه الإلهية. فهو، من خلال الوصايا يعرفه، ويستطيع مثله أن يُقيم الحكم والعدل وسط الأرض.

بهذه الأقوال تنبَّأت أمُّ صموئيل عن صلب الربّ وقيامته، وأنبأت أن الإنسان يجب أن يتألم معه باقتناء الفضائل، ويتمجَّد معه باللاهوى والمعرفة، ويتعظّم فيه، وقد أكرِكَ، مع قلة استحقاقه، بأن يكون خادماً لذيّاك المعلّم ويقتدي بتواضعه.

وعندئذٍ – يقول الرسول – ينال كل واحد من الله ما يعود عليه بالثناء". عندئذ... ولكن متى؟ عندما سيقول للذين إلى يمينه: "تعالوا يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت". عسانا نكون جميعاً أهلاً له، بنعمته ومحبته للبشر، له المج والعزَّة إلى الدهور. آمين.

الحديث الثالث والعشرون

عن الكتب المقدَّسة تتحدَّث المقالة الثالثة والعشرون. والهدف منها ألاّ يقع الخلاف بين الذين يسبرون معانيها، بل يعلموا كيف يجب أن يفهموا كل ما كُتب فيها. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

"أشيدوا بكل ذهنكم"، يقول النبيّ. "وتصفحوا الكتب"، يقول الربّ. فمن يسمع فهو في النور، ومن لا يسمع فهو في الظلام. فإذا لم ننتبه للمعاني المتضمّنة في الكتب الإلهية، لم نَجْنِ الكثير من ثمارها، وإن أكثرنا منها ترنيماً وقراءة.

لقد قيل: "كفوا واعلموا". ولا غرو، فالراحة تستجمع الذهن؛ فما إن نصمّم على الانتباه، حتى تتحقق لنا معرفة ناقصة، على حدّ قول الرسول، خصوصاً إذا أقبلنا على العمل الأدبي الذي يولي الذهن، في صراعه مع الشهوات، خبرة كبيرة. ولكننا لا ندرك من الله الأسرار المطويَّة في كل كلمة من الكتاب المقدَّس، بل من يستطيع الذهن النقيّ أن يتلقاه من النعمة. فقد يتفقٍ لنا مراراً أن نفهم، نظرياً، كلمةً مكتوبة، فندرك لها معنىً أو معنيين؛ ولكن بعد فترة من الزمن، يستطيع الذهن

أن يزداد نقاءً، فُيعطي معرفةً أخرى أسمى من الأول. وإذا به، في فاقته، يذهل لنعمة الله وحكمته السامية، فيرتعش ويرتعد أمام إله المعارف، على حدّ قول حنّة النبيّة: "الرب هو غله المعارف".

بيد أني لا أتكلّم هنا عما نسمعه من كتاب أو من إنسان؛ فنحن لن نجد في ذلك نقاء الذهن والوحي، بل نجدهما يوم تتوفّر لنا المعرفة ونظلُّ في حَذَرٍ من ذواتنا، إلى أن يتبينّ لنا أن الكتاب المقدّس أو أحد القدّيسين يشهدان لهما بالمعرفة النابعة عفوياً من كلام الكتاب المقدَّس أو من المحسوسات أو الروحيّات، حتى وإن وجدنا أو سمعنا في الكتاب المقدَّس أو عند الآباء القديسين، بدل المعنى الواحد، معاني متعّدة. فلنحتفظ بالثقة ولا نتوهَّم أنّ في ذلك تضارُباً. فقد يكون للكلام الواحد معان كثيرة. فالثوب مثلاً، منهم من يقول فيه إنه يوفّر للجسم دفئاً، والآخرُ زينةً، والآخرُ غطاءً. وجميعهم على حق، لأن الثوب يفيد، ولا شك، في التدفئة والتغطية والزينة. فالثلاثة أصابوا غاية الله في اللباس، وتدعمهم في ذلك شهادة الكتاب المقدَّس وطبيعةُ الأشياء. ولكن إذا وضع أحدٌ في خَلَدِه، لأنه جَشِعٍ ولصّ أن ليس للثوب من فائدة إلاّ أن يُسلبَ ويُسرق، فهو يكذب على كل حال؛ فنحن لا نجد في الكتاب المقدّس ولا في طبيعة الأشياء ما يُثبت أن اللباس جُعل لهذا الغرض. ثم إن القوانين تعاقب على هذا التصرف.

وهكذا القول في كل ما يتعلّق بالحسيّات والروحيات وفي كلِ قول من أقوال الكتاب الإلهي. فالقديسون لا يُحيطون علماً بجميع مقاصد الله في كل شيء وفي كل كلام مكتوب، ولا هم يدوّنون، بوجه نهائي، كلَّ ما يعرفونه منها. فالله، من جهة، يتخطّى الإدراك، وحكمته ليست من المحدوديَّة بحيث يستوعبها ملاك أو إنسان. وهذا ما يؤكده يوحنّا فم الذهب في حديثه في أحد ضروب المشاهدة: نحن نقول في ذلك ما علينا أن نقوله الآن، ولكنَّ الله، علاوة على ما نقول، يعرف أشياء أخرى يتعذّر فهمها. ومن جهة أخرى، لا يَحْسُن بالقديسين أنفسهم أن يبوحوا بكل ما يعلمونه، بسبب ضعف الناس، ولئلاً يمسي حديثهم، إذا طال، بغيضاً ومُغلقاً بسبب الإبهام. وإنما يجب أن يكون كلامهم موزوناً، بحسب القديس غوريغوريوس اللاهوتي.

ولذلك يستطيع المرء ذاته أن يقول اليوم شيئاً وغداً آخر في الموضوع ذاته؛ وليس في ذلك من تنافر، إذا كان السامع من ذوي المعرفة والخبرة لما يُقال. وأيضاً: هذا يقول أشياء وذاك أشياء أخرى في النص الكتابي الواحد؛ ولا عجب، فالنعمة الإلهيّة كثيراً ما أوحت بهذه وتلك، بحَسَب الناس والأزمان. وإنما علينا أن نتوخَّى هدفاً واحداً: أن يكون كل ما نعمله ونقوله مصوّباً نحو الغاية الإلهيّة، وأن يكون كل شيءٍ مُثبتاً في الكتب الإلهية. ولا نسمعنَّ قول الرسول: "فليكن ملعوناً، ولو كان ملاكاً"، وكلُّ من يبشّر بإنجيل آخر يخالف القصد إلهي وطبيعة الأشياء. وهذا ما يقوله أيضاً ديونيسيوس الكبير وأنطونيوس ومكسيموس المعترف. ويضيف يوحنا الذهبيُّ الفم: "ليس أبناء الإغريق هم الذين نقلوا إلينا هذه الأمور، بل الكتاب المقدّس، ولا يناقض الكتاب نفسه عندما يقول عن إنسانٍ إنه لم يَرَ بابل، في زمن السبي، وفي موضع آخر: إنه سيق إلى بابل مع الآخرين. فإذا قرأنا بانتباه، وجدنا في موضع آخر من الكتاب أن هذا الإنسان نفسه أُعمي وقِيدَ أسيراً. لقد ذهب إذن إلى بابل، كما ورد في النص الأوّل، ولم يبصرها، كما جاء في النصّ الثاني".

وأيضاً: يقول البعض، جاهلين، أن الرسالة إلى العبرانيين ليست من الرسول بولس، وأن بعض ما ورد في أقوال ديونيسيوس الأريوباغي لا يتناغم وأقواله الأخرى. ولكن إذا تمعَّنا في هذه الأقوال، إنجَلَتْ لنا الحقيقة. فإذا كان من البديهي أن هذا الأمور ينبُع من البصيرة، أي من المعرفة الطبيعيّة، ومشاهدة الكائنات (أي الخلائق) الموهوبة للذهن النقيّ، فالقديسون يعلنون، في منتهى الدقّة، ما هو قصد الله. فالذين يسبرون الكتب المقدّسة – يقول يوحنّا الذهبيُّ الفم – يشبهون الباحثين عن الذهب في مناجم الأرض؛ يلتمسونه في أدقّ عروقه، لئلاّ تقع ياءٌ أو نقطة، بحسب

قول الرب. فالياء هي الحرف العاشر، والنقطة هي ما يُسمَّى بحرف المدّ، بدونه لا نستطيع أن نكتب بطريقة سليمة.
هذا في شأن الطبيعيات؛ ولكن إذا تخطّى الحسيُّ أو الروحيُّ حدود الطبيعة، فهم يدركون الكلام المكتوب عن طريق الرؤية الأصليّة والوحي فيما أُعطُوا المعرفة بالروح القدس. فإذا لم يُعْطَوها، وبقي الأمرَ ــ لصالحهم ــ مُغلقاً عليهم، فهم لا يخجلون من قول الحقيقة، والإقرار بضعفهم البشري، مؤكّدين مع الرسول: "لا أعلم، الله يعلم"؛ أو، كما قال سليمان: "ثلاثة يعجزني فهمها، والرابع لا أعلمه"؛ أو كما يقول أيضاً يوحنّا الذهبيُّ الفم: "لا أعلم! وإذا عدَّني الهراطقة ملحداً، فليحسبوني أيضاً مجنوناً". وجملة القول أن هؤلاء الناس الذين أحرزوا كلا الحكمتين، آثروا الحكمة العُلويّة، واستعملوا، بحكمةٍ واعتدال، الثقافة الدنيويّة، متّبعين النهج الذي رسمه الرسول، الاَّ نفتخر فوق القياس، كما افتخر أولئك المصريون، الذين هزئوا بالرسول برنابا وبألفاظه الخشنة، جاهلين أن كلمات الحياة الأبدية في كرازته، كما ورد في الوجه، عندما نضحك لسماع من ينطق بألفاظ غريبة، وقد يكون حكيماً في لغته، ويتحَّدث عن الأسرار الرهيبة. كلُّ هذا مردُّه إلى الجهل.
بيد أن الآباء كتبوا دائماَن من تلقائهم، أمور بسيطة وفقاً لمقتضى الزمن والناس الذين كتبوا لهم. فالقديس غوريغوريوس النيصي يمتدح، مثلاً، القديس أفرام – وكان من الرجال الحكماء – لأنه كتب أموراً بسيطة. وكان مُعجباً بخبرته الكبيرة في المعتقدات، ويروي كيف ألصق بعضَها ببعض صحائفَ كتب لعينةٍ لهرطوقي سخيف، لم يُطِق هذا العار فقضى من الكبرياء. ولا غرو، فالتواضع المقدَّس فضيلة تفوق الطبيعة، ولا يقدر ملحِدٌ أن يملكها، بل يحسبها منافية للطبيعة، كما يقول ديونيسيوس الكبير، في كتابه إلى القديس تيموثاوس في شأن هؤلاء القوم: "قيامة الأموات تبدو للأقدمين منافية للطبيعة، ولكنها في نظركِ ونظر الحقيقة، لا تنافي الطبيعة، بل تفوق الطبيعة". هذا بالنسبة إلينا وأمَّا بالنسبة إلى الله، فهي لا تتخطّى طبيعته، بل هي في نطاق طبيعته، لأن نظام الله هو طبيعته. ولكنَّ الآباء يؤثرون التواضع، عملاً وقولاً، كالذي كتب الجيرونتيكون؛ فمع أنه كان أسقفاً ومنفيًّا لأجل المسيح، فقد قال في رداء إحدى العذارى: "أخذتُه لأتبارك به". كذلك الأبوان القديسان، ذوروثاوس وكاسيانوس – وكانا حكيمين – كتبا هما أيضاً أموراً بسيطة.
هذا كلّه. أتينا على ذكره، لئلاّ يُظَنَّ أن بعضهم كتبوا، عن كبرياء، أموراً خارقة، وبعضهم، عن سذاجة، أموراً بسيطة. فالذهن واحدٌ عند هؤلاء وأولئك، يهبُه الروح القدس الواحد. وكان غرضهم منفعة الجميع. فلو كتبوا كلهم أمراً بسيطة لما استفاد قطُّ أحدٌ من الأمور الخارقة، ولكُنّا اقتصرنا على العموميّات، وحَسِبْنا الخوارقَ لا شيء. وفي المُقابل، لو كتبوا كلهم أشياء خارقة، لما أفاد البسطاء منها شيئاً، بعجزهم عن فهم مدلولاتها. من يملكْ خبرة التأمل في الكتب المقدّسة، يعلمْ أنَّ أبسط أقوال الكتاب المقدَّس وأعمقها لهما فهمٌ واحد، غايته خلاص الإنسان. أمّا من تُعوِزُه هذه الخبرة، فهو يتعثَّر غالباً، جاهلاً ما يمكن أن توقره له الثقافة الدنيوية، عندما تصبح مطيَّة للحكمة العُلويّة، حكمةِ الروح. فالثقافة الدنيويّة تُكسبُ معاني جليَّة، والحكمةُ العُلْوِيَّةُ مقدرة الكلام، بشرط أن يبقى الفكر راسخاً وعفيفاً، ونجانبَ الحماقة والعجرفة، ونلبس عواطف متواضعة،
وكما أن لفظة "آمين" التي يذكرها إنجيل لوقا هي حقاً، الكلمة الراسخة التي تثبتُ كل ما قيل، كذلك التفكير هو الإدراك الراسخ للأمور، وبوسعه أن يصون الحقيقة. فإنه في الـــ"آمين" تُقيم النعمةُ الجديدة التي لا نجدها كاملةً في العهد القديم، بل بمثابة رمزٍ. وأما النعمة الجديدة فهي لا تكفُّ عن تردادها، لأنها مقيمة في الأبد، وإلى دهر الدهور.

الحديث الرابع والعشرون

الثاء هي الحرف الرابع والعشرون. هذه المقالة تمكّن القلب من الشعور، فيعلمُ كلٌّ منَّا ما هو لخيره. والآن، أيها الآب، بارك البداية.

آه! كم من الدموع بودّي أن أذرفها عندما أتراءى لذاتي. فإني عندما أتجنَّب الخطأ يستخفُّني العُجْبُ. ولكن عندما أخطِئ وأفطن لذلك، تخونني الشجاعةُ أنا البائس، وأقع في القنوط. فإذا لُذْتُ بالرجاء، داهمني العُجْب ثانية، إذا بكيتُ تعرضتُ للغرور، وإذا حبستُ نفسي عن البكاء، عادت الأهواء. حياتي موتٌ؛ ومع خوف العقاب يُمسي الموتُ أدهى. صلاتي تُمسي فيَّ تجربة، وقلَّةُ الانتباه تَهلُكه. من ازداد عِلماً ـــ يقول سليمان ـــ ازداد كَرْباً

أراني حائراً، شارداً لا أدري ما العمل. فإذا عرفتُ ولم أعمل، حكَمَتْ عليَّ المعرفة. ويحي! ماذا أختار؟ كل الأشياء تبدو لي متناقضة، أنا الجاهل، ولا أستطيع أن أجعلها متجانسة. فأنا لا أجد في التجارب الفضيلة الكامنة فيها والحكمة الخفيَّة، لأن الصبر يُعوزني، بل أهجر السكينة عن طريق الأفكار. وفي التجربة وعبر الحواسّ ألفي الأهواء في الخارج. فإذا ابتغيتُ الصوم والسهر صرفني عنهما الغرور والتواني؛ وإذا أكلت ونمتُ بلا حساب، وقعت، لا محالة، في الخطيئة. إني مُحاصِرٌ من كل صوب. أهرب خوفاً من الخطيئة ولكنَّ العياء يُرديني أرضاً.

ولكني، مع ذلك، أرى كثيراً من الناس، وسط هذه الصراعات والتجارب، يفوزون بالأكاليل. إيمانهم وطيد، أكسبَهم مخافة الله، وبفضله حققوا عمل الفضائل الأخرى. فلو كان لي الإيمان أنا أيضاً مثلهم، لوجدتُ المخافة. وهذا ما قاله النبيّ: لقد نالوا التقوى والمعرفة عبر المخافة، ومن المخافة تفيض القوة والمشورة والفهم وحكمة الروح على الميمين في الله، بمنأىً عن الهموم، وفي الصبر على درس الكتب الإلهية، الذي يجعل العُلْويّات كلها شبيهة بالدنيويّات كلّها. فعندما تتحوّل شهوّة إلى فضيلة، فالزمن والخبرة يبيّنان ذلك جليًّا. ولكن عندما تنزع الفضيلة إلى الشهوة، فالزمن والخبرة يميّزان بينهما عادة بالصبر. فإذا لم يَنْبُع الصبرُ من إيمان النفس، فمن المستحيل أن نُحرزَ يوماً أي فضيلة. "بالصبر تنقذون أنفسكم" يقول الربُّ، جابل قلب كل إنسانٍ كما يُنشد صاحب المزامير. ويعني بذلك أن قلب كلّ ِ بشر، أي الذهن، يتكوَّن عبر الصبر في الشدائد.

المؤمنُ بأنَّ هناك آخرَ يوجّه في السرّ حياته، متى – يا تُرى! – يُذعن لفكره القائل له: أريد أو لا أُريد هذا! هذا صالح وذاك طالح؟ إذا كان لنا، في هذا العالم، من نهتدي به، فعلينا أن نطلب نُصْحه في كل شيء، ونسمع جوابه، ونعمل بما يقول. ولكن إذا لم يكن لنا مُشير، فلنا المسيح، يقول الإفخائي؛ فعلينا أن نطلب مشورته عبر صلاة القلب، ونرجو جوابه عملاً وقولاً عبر الإيمان، لئلاَّ يُجيبَنا الشيطانُ بالكلام – وهو العاجز عن أي عمل – أنّه هو المُشير، فيتَّخذ شكله، ويسوق إلى التهلكة من لا صبر لديهم. هؤلاء يُحاولون، في جهلهم، أن يأخذوا ما لم يُعطَوه قطّ، وهو أن يوماً في عيني الربّ مثلُ ألف سنة، وأن ألف سنة مثل يوم.

وأما الذي أحرز، بالصبر، خبرة مكايد العدوّ، فهو لا يكفُّ عن العمل ـــ بحسب طلب الرسول ـــ ولا يني يكافح ويسعى بلا هوادة ليحبطها ويتمكّن من القول: نحن لا نجهل وساسه، أي خُدَعَه الخفيّة، المطويَّة عن معظم الناس. فقد قيل إنه يتزيَّا بزيّ ملاك نور؛ ولا عجب؛ فالأفكار التي يبعثها في القلب تبدو أفكار برّ لمن لا خبرة لهم. ولذلك يحسن القول: "لا أعلك!"، لئلاَّ يخوننا الإيمان بإزاء أقوال الملاك، ولئلاَّ نصدّق ما يقوله العدوّ. وإنّما علينا بالصبر، أن نُجانب كلا الهاويتين، مدة سنوات، مُرغَمين وجاهلين كل شيء، إلى أن يصبح الجواب نافذاً ـــ كما قلنا في مشاهدة الكائنات، خلائق الله ـــ ونصل إلى ميناء، أي إلى معرفةٍ عاملة. ويجب أن نكون قد رأينا

هذه المعرفة مستمرّةً سنين طويلة، لنعرف أننا سُمعنا حقاً، وتلقينا جواباً بطريقةٍ خفيّة. عندئذٍ نصلّي ليتمّ النصرُ للمجاهدين، ولا نظلُّ نسمع أي كلام ولا نرى أي شكل يوقعاننا في الوهم؛ بل مهما يُلمّ بنا أثناء الرقاد أو في عالم المحسوسات، لا نصدّقْ منه شيئاً. بعد بضع سنواتٍ، نرى انتصار النعمة على الجهاد، وتراودنا أفكارٌ تقود الذهن في طريق التواضع ومعرفة ضعفنا. ولكننا لا نصدّق بعد، بل يطول بنا الانتظار سنواتٍ طويلة، تحت وطأة الخوف من أن نقع فريسة الشيطان. وهذا ما يقوله يوحنّا الذهبيُّ الفم في شأن الرسل: لقد أنبأهم الربّ بالشدائد التي كان لا بدّ لهم من معاناتها، وأضاف: "من يصبر إلى النهاية فذاك الذي يخلص". كان عليهم ألا يقعوا أبداً في التهاون، بل أن يجاهدوا بدافع المخافة. فالفضائل الأخرى لا تجدي نفعاً حتى ولو عشنا في السماء، ما دمنا نعاني من الكبرياء الذي به سقط الشيطان وآدم وكثيرون آخرون.
علينا إذن ألاّ نطرح المخافة أبداً، ما دمنا لم نبلغ ميناء المحبّة الكاملة، وما دمنا لم نخرج من العالم ومن الجسد. مثل الإنسان لا يطّرح المخافة من تلقاء ذاته، ولكنَّ الإيمان الكبير يُعتِق الذهن من همّ الحياة وموت الجسد، فيبلغ الخشية الطاهرة، خشية الحب التي يتحدَّث عنها أثناسيوس الكبير إلى الكاملين: "لا تخشَى الله كسيّد قدير، بل اخشَه باعتبار حبّه لك". لا تخشَ فقط أن تخطأ، بل أن تُحَبَّ ولا تُحبَّ، فتكون غير أهلٍ لما تناله من الخير. وعليه، فخشية هذا الخير هي التي تحمل النفس على أن تُحبَّ وتصبح أهلاً للأفضال التي تنالها وسوف تنالها، حافظة الجميل للمفضل عليها. ومن الخشية الطاهرة النابعة من المحبّة، نبلغ التواضع الفائق الطبيعة.
مثل هذا الإنسان، أيًّا كان الخير الذي ينعم به والبلايا التي يحتملها، لا يفكّر البتَّة أنه يملك من ذاته القدرة أو الدراية ليظلَّ مثابراً ومعافىً نفساً وجسداً. ولكنّ التواضع أولاه [نعمة] التمييز، وبها يدرك أنه خليقة الله، وأنّه بذاته لا يستطيع أن يأتي عملاً صالحاً ولا أن يحفظ ما جادت به النعمة عليه، ولا أن يُلغي التجارب، ولا أن يستمرَّ [في الجهاد] معتمداً على شجاعته وتفكيره. ومن التمييز ينتقل إلى معرفة جزئيّة للأشياء، ويبدأ يرى بالذهن جميع الكائنات، وإذ يجهل أسبابها، يتوق إلى المعلّم فلا يجده لأنه لا يُنال بالبصر. ثم إنه لا يتلقّى، في ذاته – بحسب ما تعلّمه من فضيلة التمييز – أيّ شكلٍ ولا أي فكرٍ غير مُثبتَ، فيظل مرتقِباً.
وعليه، فهو يحسب هباءً كل ما فعله بذاته وكل ما تلقّنه من غيره، ويرى أمامه جمهور الذين سقطوا بعد جهادات كثيرة ومعارف جمَّة، منذ آدم والذين جاؤوا من بعده. وعندما يسمع ولا يفهم بعض ما تقوله الكتب الإلهيّة، يُجهش بالبكاء بدافع هذه المعرفة، علماً منه أنه، في الحقيقة، لا يعرف كما ينبغي، وأن من يزعم العلم ــ ويا للعجب! ــ لا يعلم بعد شيئاً، وأن ما يدعي علمه سوف يُنزع منه ــ على حدّ قول الرب ــ لأنه يظن أنه يملك شيئاً وهو لا يملك شيئاً. غبيٌّ هذا الإنسان وبليد الذهن، ضعيف وجاهل! يبكي وينتحب عندما يظن، في امتنانه، أنه نال ما ليس له. ولا غرو، فالتواضع يولدُ من فضائل كثيرة، ولكنه هو أيضاً يولّد أكمل الفضائل. وكذلك المعرفة والشكر والصلاة والمحبَّة. فهذه الفضائل لا تكفّ أبداً عن النموّ. فإذا إتضع المرء وانتحب لمعرفة ذاته خاطئاً، عدا قنوعاً، واحتمل ما يصيبه من المكاره، شاء أم أبى، وكابد بالرياضة ما يأتيه من الشياطين، وما ياتيه من الناس لاختبار الإيمان، فيظهر بمن وضع رجاءه: بالله أم بإنسانٍ أم بقوته الذاتية وفكره الذاتي. فإذا ما امتحِن بالصبر، وأسلم إلى الله كل أمره، فاز بالإيمان الكبير، ذاك الذي يشير إليه الربّ بقوله: " عندما يأتي ابن الإنسان، أيجدُ الإيمان؟"
بهذا الإيمان نحرزُ الغلبة علة محاربينا؛ فإذا توفَّر لنا، نِلنا قدرة الله والحكمةِ المقيمةِ فينا، ومعرفة ضعفنا وجهلنا، ونبدأ نرفع إلى الله شكرنا، في تواضع النفس، مرتعدين خوفاً من السقوط ثانية، كما في السابق، في معصية الله. وانطلاقاً من هذه الخشية الطاهرة، المعتقة من الخطيئة، وفي المشاعر الشكر والصبر والتواضع النابغة من المعرفة، يطلع فينا الأملُ بنيل الرحمة الصادرة من

النعمة. ولكن خبرة الأفضال المُسبَغة علينا، تحملنا أيضاً على الترقُّب والتخوّف من أن نُجَد غير أهل لهبات الله هذه. ومن ثمَّ ينمو فينا التواضع، وتزداد صلاة القلب حرارة؛ ومع نموّهما بنموّ الشكر، ننال معرفة أرسخ. وهكذا، من المعرفة إلى الخشية، ومن الخشية إلى الشكر، ننتهي إلى معرفةٍ تفوق الهبات الأولى، فنحبّ المحسنَ فِطرةً، ونشتاق خدمته فرحين، لأننا مدينون له بهذه المعرفة التي أصبحنا مؤتمنين على نموّها.

بعد الأفضال الخاصَّة، نشاهد الأفضال العامَّة التي يُعجزنا شكرها، فيُفضي بنا ذلك إلى الكآبة. ثم يُعاودنا الإعجاب بنعمة الله، فنناديها؛ ونبكي من الألم تارة، ويولينا الحبُّ، تارة أخرى، أن نذرف دموعاً أحلى من العسل، ويغمرنا فرح روحيّ نابعٌ من تواضع يفوق الوصف. عندئذٍ نودُّ إرادة الله حقاً، ونزدري كل مجدٍ وكلَّ رغد، ونجعل أنفسنا دون الجميع، ولا نحسب ذواتنا شيئاً البتَّة؛ ولأننا مدينون لله ولجميع الناس كما لله، نحسب التجارب والشدائد فضلاً جزيلاً، والفرحَ والرغدَ ضرراً فادحاً؛ فنودُّ الأولى من كل نفسنا، ومن أين أتت، ونخشى الآخَرَيْن وإن جاءا عند الله لامتحاننا.

وسط هذه الدموع كلّها، يبدأ الذهن يتلقّى التنقية، ويعود إلى حالته السالفة، أي إلى المعرفة الطبيعيّة التي كان حبُّ الشهوات قد أفقده إياها. هذه المعرفة، بعضهم يسمّيها تأملاً، لأن الذهن يرى الأشياء كما هي في فطرتها. وبعضهم يسمّيها بصيرةً، لأننا نعرف إذا ذاك جزئياً ما يُتاح لنا رؤيته من الأسرار الخفيّة، أي قصد الله كما نجده في الكتب المقدّسة وفي كل خليقة. والبصيرة وليدة التمييز، وبوسعها أن تدرك عِلّة المحسوسات والروحيات. ولذلك نسميها أيضاً مشاهدة الكائنات، أي الخلائق؛ وهي مشاهدةٌ طبيعيّة تنبع من نقاوة الذهن. وأما إذا قُدِّر لأحد أن يبلغ الرؤيا النبويّة، لجل الخير العام، فذلك يفوق الطبيعة. فالله وحده يعرف سلفاً كل شيء في الجميع، ويعلم لماذا صنع كلاً من الأشياء، وقال كلاً من أقوال الكتاب المقدَّس، ولماذا يجود بالمعرفة على مستحقيها. مشاهدة المحسوسات والروحيات ــ وهي ما نسمّيه بالتأمل ــ هي إذن بصيرة ومعرفة طبيعيّة، لأنها كانت من قبلُ في الطبيعة؛ ولكنَّ الشهوات عكّرت صفاء الذهن، فحجبت عنه الرؤية، ما لم يدمّرها الله بسلاح الفضيله العاملة. ولكنَّ هذا لا ينطبق على الرؤيا النبوية، فهي نعمة تفوق الطبيعة. وأما البصيرة الأولى، وإن طبيعية، فهي لا تتحقق بدون الله.

لقد أدرك الإغريقُ أشياء كثيرة، ولكنهم لم يهتدوا البتّة إلى قصد الله في الخلائق ــ على حدّ قول باسيليوس الكبير ــ والله نفسه لم يهتدوا إليه، لأنهم كانوا عُزّلاً من التواضع وإيمان إبراهيم. ويُعدُّ الإنسان مؤمناً إذا آمن باللامنظورات انطلاقاً من المنظورات. ولكنَّ الإيمان بالظاهرات ليس هو الإيمان بذاك الذي يعلّمنا أو يعِظنا. وعليهٍ، فالتجارب، لامتحان إيماننا، هي من الأمور الظاهرة، ولكنَّ مدلولها خفيّ. المؤمن بعد خروجه من التجربة، يجد المعرفة بالصبر، ويعلم، مذ ذاك، أنه يجهل، وأنه ينال بذلك إحساناً؛ ويحمل ثمر التواضع ومحبّته لله المفضل عليه، وللقريب عبر خدمته لله؛ ويحسب نفسه، بطبيعة الحال، مديناً، ويودُّ أن يحفظ الوصايا؛ ويمقتُ الشهوات مقته لأعدائه، ويزدري الجسد ويعتبره حاجزاً دون الوصول إلى اللاهوى ومعرفة الله، أي الحكمة الخفية.

وإنها حقًّا لخفيّة! فالذي يجد في هذا العالم كفايته ونعيمه ورغده ومجده، فهو من عُشّاق العالم. وأما من يعشق حكمة الله ويعكم على التقشف والقناعة ويحتمل كل غمٍّ وخزيٍ لأجل ملكوت السماوات، فهو، في جهاده، يلتمس نقيض ذلك تماماً. الأوّل يودُّ مداناة الخيور الظاهرة والتعاليم والممالك الدنيوية، وكثيراً ما يجني منها العذاب ألواناً، والآخر يشارك المسيح آلامه. الأوّل يضع في هذه الدنيا آماله، إن كانت له آمال لأنها تعبر مع الزمن وتبقى عسيرة المنال. والآخر، ههنا، محجوبٌ عن أبصار الجهال ــ على حدّ قول الكتاب الإلهي ــ ولكنه يتجلّى في الدهر الآتي، عندما تُكشف الأسرار. أضِف إلى ذلك أن معرفة الأسرار هذه، أي مشاهدة الكتب الإلهية

والخلائق، يُنعِمُ بها الله ــ على حدّ قول يوحنا الذهبيّ الفم ــ على من هم في الكآبةُ ههنا. فإنه من الإيمان تنبع المخافة، ومن المخافة الكآبة أمُّ التواضع الذي يُنجب التمييز، ومنه تنبثق البصيرة، والرؤيا النبويّة بالنعمة.
على العارف ألاّ يتشبَّث بأفكاره الخاصة، بل عليه أن يستدعي دائماً شهادة الكتاب الإلهي وطبيعة الأشياء. فبدون هذه الشهادة ليس من معرفة راهنة. كل شيء خبائة ووهم، كما يقول باسيليوس الكبير في شأن النجوم. الكتاب الإلهي قليلاً ما يُسمّي الأشياء. وأما الإغريق فكانوا، بالعكس، يختلقون أسماء كثيرة. فهدف الكتاب الإلهي هو ما يمكن أن يُنقذ النفس ويكشف للبعض أسرار كلام الله، وعِلل الأشياء، أي غاية كلّ ِ شيء، فيستنير الذهن في حبّ الله ويتمكّن من معرفة عظمته وحكمته المعجزة والعناية التي بها يرعى الخلائق.
هذه المعرفة تحمل مثل هذا الإنسان على تَهيُّب الإخلاف بوصايا الله والوقوف على ضعفه وجهله. فهو يمارس التواضع في هذه الدنيا ويحبُّ الله ولا يزدري وصاياه، كما يزدريها المحرمون معرفتَه العاملة. ويحجب الله عنه بعض أسراره، ليمتلئ شوقاً لا اشمئزازاً مثل آدم. ولو وجده الخصم خارجاً لاجتذبه إلى ضلاله. تلك هي أحوال الفضلاء. وأما الجهّال فالله يبعث فيهم المخافة عن طريق التجارب لكي يبتعدوا عن الخطيئة، وبالأفضال الجسدية يكلأهم لئلاّ يقنطوا.
هذا كلُّه، يصنعه الله في لطفه اللامتناهي ليخلصنا جميعاً وينقذنا من حبائل الشيطان، سواء تلطّف علينا بالفضال والمعارف أم حجبها عنّا. يُعطينا المواهب ومعنى الأشياء، مكافأة شكرنا؛ كما أنه، للفائدة أيضاً، يحجب عن بعضهم أو يكشف لهم الكتاب الإلهي، وفقاً لنيّة قارئه. وأما هدف الفلاسفة الدنيويين، فكان على خلاف ذلك كثيراً. كان كلٌّ منهم يحاول أن يبزَّ الآخر ويظهر أكثر منه حكمة. ولذلك لم يهتدوا إلى الربّ لا هم ولا أعقابهم، مع أنهم يبذلون في ذلك جهداً كبيراً.
لأنه ليس في المجاهيد ــ يقول يوحنّا السلمي ــ بل في التواضع والبساطة، يتجَّلى الله بالإيمان، أي بمشاهدة الكتب المقدَّسة والخلائق. وهذا ما يقوله الرب: " أنى لكم أم تؤمنوا وبعضكم يقبل المجد من بعض الخ..."
هذا هو الإيمان الكبير: الإيمان القادر أن يستودع الله كلَّ همّ. ويسمّيه الرسول أساساً، ويوحنّا السلَّمي أبا السكينة، والقديس اسحق إيمان المشاهدة وباب الأسرار. من كان على هذا الإيمان، نحرّر من كل هَمّ، كجميع القديسين الذين كانت أسماؤهم، كأسماء الأبرار. الأقدمين، مطابقةً لمزاياهم. فبطرس حمل اسم الصلادة، وبولس اسم الهدوء. ويعقوب هو المُزيح لأنه أزاح الشيطان؛ واستطفانوس معناه الإكليل الأبدي. وأثناسيوس الخلود، وباسيليوس الملكوت وغوريغوريوس يقظة الحكمة أي اللاهوت، يوحنا الذهبي الفم الخير الأثمن والنعمة المشتهاة، واسحق الصفح. فالأسماء في العهد الجديد، تطابق إذن أصحابها، كما في العهد القديم. فآدم هو لقبٌ للجهات الرئيسة الأربع والإنسان، كما كانوا يسمونه آنذاك في السريانيّة، يعني النار أيضاً، لأمه على مثال الطبيعة. فالأنام كلهم خرجوا من إنسانٍ واحد، كما من سراجٍ واحد؛ نوقد سُرُجاً أخرى على قدر ما نشاء، ويبقى السراج الأول لا ينضب ضوءُه.
ولكن بعد بلبلة الألسن، نجد هنا لغةً تُخرج أصولها من النسيان الذي وقع فيه الإنسان؛ وهناك لغةٌ أخرى تكتشف تلك الأصول في أبحاثها الخاصة على ما فيها من تباين. فبلاد اليونان تشتقُّ لفظة الإنسان ــ Anthropos - من فعل Ano athrein: أي نظر على فوق. ولكنّ أساس الطبيعة البشرية هي العقل ــ اللوغوس ــ ولذلك نقول إنه عاقل ــ Iogikos ــ لأن الإنسان وحده يتميّز به. وأمّا الأسماء الأخرى الدالّة عليه، فيشاركُ فيها خلائق أخرى. ولذلك علينا أن نتخلّى عن كل شيء، ونستأثر بالعقل، بما أن مزيّتنا العقل، ونُقرّب بواسطة العقل ــ Io'gos ــ أقوالنا ــ Io'goi ــ إلى الله الكلمة ــ Lo'gos ــ فيتسنىَّ لنا أن نتقبَّل منذ الآن، عِوض أقوالنا، أقوال

الروح القدس، على حدِّ ما قيل: "أعط الصلاة لمن يصلّي". فمن أتقن صلاةً، نالَ من خشية الله الطاهر ما لا صورة له ولا شكل. ومَنْ أحسَنَ التمرُّس بالخشية حظي بمشاهدة الخلائق. وأخيراً، بل استجمع ذاته بعيداً عن كل شيء ولم يكتفِ بالسماع، بل أكبَّ، ذاته، على العمل والقول، نال من المشاهدة إنخطاف الذهن الذي يُشرِع له باب اللاهوت وخيورَ الدهر الآتي.

المعرفة إذن خيرٌ إذا انتقلَت بصاحبها مرغماً من البلبلة إلى التواضع، وامتلكها من غير استحقاق، وتأبَّاها بتواضع باعتبارها ضرراً عليه – بحسب قول يوحنّا السلمي – حتى وإن جاءته هبةً من الله. ولكن الويل إذا أفضت بصاحبها إلى مصير ذاك الذي صرعه الشياطين بسفافيدهم. لقد ذاع صيت عظيم، وكانت معزّة الناس له بحيث تفجّعوا جميعهم على موته، وعدّوا نزوحه عنهم وحرمانهم منه خسارة فادحة. ولكنّه كان يُضمر غطرسة خفيّة. وقد سمع راوي هذه الأحداث صوتاً من السماء يقول: "لا تُريحوه لأنه لم يُرحني ولو لحظةً واحدة". ويحه! كان الناس جميعهم يسمّونه قدّيساً، وكثيرون يؤمّلون النجاة، بصلواته، من تجارب كثيرة، وإذا به يفضي إلى مثل هذه النهاية بسبب كبريائه. لقد كان السبب، بلا مراء، هو هذا الكبرياء. فلو كانت عليه خطيئة أخرى، لما استطاع أن يغشَّ جميع الناس ولا أن يقترف هذه الخطيئة في كل لحظة. ولكنه كان رهين البدعة؛ ورهين البدعة يثير غضب الله في كل لحظة بفكره المجدّف. ولكنَّ التجديف لا يخفي كل الخفاء، وعناية الله تفضحه لتقوّم صاحبه، على افتراض رغبته في الرجوع عن غيّه. وإلاّ فهذا الفضح يستطيع أن يعصم أناساً آخرين. وعليه، فالكبرياء وحده، في صلفه، يستطيع أن يخدع الجميع، حتى المبيلى به، وذلك بمقدار ما يأبى إمكان الوقوع في التجارب التي تتيح للنفس أن تستعيد زمامها وتتبيَّن ضعفها وجهلها. فالروح القدس لم يَنْعَم إذن ولو بلحظة واحدة من الراحة في هذه النفس الشقيّة التي باتت تعود نفس الفكرة دائماً وتتمتع بها كمأثرةٍ من المآثر. فأطبقت عليها الظلمات كما أطبقت على الأبالسة. ولما لم يكن ليظهر منه أي زلَّةٍ، فقد بات يرعى هذه الرذيلة الوحيدة، مستغنياً بها عن كل شيء سواها، فاكتفى الشياطين بذلك، نظراً إلى أن الكبرياء يقوم وحده مقام سائر النقائص، كما يقول يوحنّا السلمي.

أنا لم ألحظ ههنا شيئاً وإنما أدوّن ما أتاح لي الشيخ القديس سماعه. فقد قال في شأن القديس بولس البسيط إن الشيطان رفض الخروج، بعدما طلب منه أنطونيوس الكبير: "أبتِ بولس، اطرد الشيطان من هذه الفتاة". ولكنَّ بولس لم ينحنِ على الفور طائعاً، بل قاوم بعض الشيء قائلاًك "وأنت، ماذا تفعل؟" ولم يُطع إلاّ من بعد أن أجابه أنطونيوس أن لا وقت لديه. ولذلك ـــ يقول الشيخ المغبوط ـــ لم يخرج الشيطان فوراً، ولكن بعد جهود كثيرة، وذلك حق! فإنه يتوجّب علينا أن نصدّق الشيخ لا لأنه يحمل الله فقط، بل لأن شهادته تُثبتها حادثة غسل الأقدام. واعتراضات موسى والنبي الباحث عن رجلٍ يضربه. وقد ألمعنا إلى هذه القِصة، ولكننا لم نأتِ على روايتها حتى الآن. فإليك بها:

يروي سفر الملوك أن ملكاً كان من القسوة في سياسة مملكته، بحيث لم يحتمل الله المحبُّ البشر طغيانه، فأوعز إلى النبيّ بأن يمضي ويندّد بهذا الملك. ولكن النبي الذي كان يعرف قساوة الملِك، أبي الذهاب خوفاً من أن يراه عن بعدٍ ويعرف سبب مجيئه فيطرده، فلا يستطيع النبي تونيبه وكان يخشى أيضاً ألاّ يكترث الملك لأقواله، إذا شرع يقول له: "لقد أرسلني الله بسبب قساوتك". فخطر له أن يشجَّه أحدهم، فيذهب مضرّجاً بدمه إلى الملك يشكو له أمره، فتنطلي عليه الحيلة، ويُسمعه ما أراد أن يبلغّه له. وإذ خذ فأسَك واضرب بها رأسي". وكان الرجل من متَّقي الرب، فأجابه: "كلاّ يا سيّدي. أنا من أتباع الله، ولن أمدَّ يدي على مسيح الرب". فأجابه النبي: "يقول الرب: بما أنك لم تطع صوت الرب، فليخرج أسدٌ من الدغل ويفترسك". ولم يكن في كلامه أي أثر للغضب. ولكنّ ما جرى بات عبرةً لكثيرين. فقد استحقَّ هذا الرجل الصالح ألاّ يموت ميتة عاديةً كسائر

الناس، بل أن يذهب فريسة وحش بأمر الرب وينال الأكاليل جزاء هذه الميتة المُرّة. (ويذكّر الجيرونتيكون بهذه الحادثة في معرض الكلام عن الكهنة الأربعة الراقدين في المسيح، والداعين إلى الله بصوت واحد لخادمهم الساقط في الزنى أن تفترسه الأسود. ولكنَّ الربَّ لم يصغ إليهم، بل استجاب صلاة السكينيّ الذي كان يطلب إلى الله أن يبعد الأسد عن الخادم). ثم إن النبي التقي رجلاً آخر من رعايا الملك، فقال له: "بأمر الله، خذ فأسك واضرب بها رأسي". فسمع الرجل كلام الرب، فضرب بلا تردّد رأسي". فسمع الرجل كلام الرب، فضرب بلا تردّد رأس النبيّ بفأسه. فقال له النبي، مثل موسى قديما: "باركك الربُّ لأنَّك سمعت صوت الرب" وهكذا، فالواحد، في عظيم تقواه، احترم النبيّ ولم يُطِعْه، مثل بطرس عند غسل الأرجل. والآخر أطاع طاعة عمياء، كما أطاع الشعب موسى، يوم تقدَّم إليهم بأن يقتلوا بعضهم بعضاً.

يبدو إذن أنَّ من يسمع إرادة الله، يكون صنيعه أجود. فالنظام الفائق الطبيعة الذي وضعه سيّد الطبيعة هو، في نظره، أحكم وأصوب من المعرفة الطبيعيّة. فمن يَعْصَ هذا النظام، يأت بالدون، لأنه يحسب ما هو جيّدٌ في نظره، أصوبَ من شؤون الله. وأما في الغيب، فليست الأمور هكذا. فالطاعة والعصيان يُقاسان بمقياس غايتهما. فمن ابتغى رضى الله، هو الأجودُ عملاً. ففي الظاهر يسخط الله على المتردّد، ويبارك على المطيع. ولكن ليست الحال، في الغيب. على هذا المنوال. فقد بات لكلا الاثنين رؤية طبيعيّة، فكان كلاهما من الصالحين، لأنهما جعلا في الله غايتهما. تلك هي الأمور.

ذهب النبيُّ إذن إلى عند الملك، وقال له، فور مثوله في حضرته: "أتصفني، أيها الملك! في طريقي إليك التقيت رجلاً ضربني على رأسي". فلما أبصر الملك الدم والشدخ، استشاط غضباً كعادته، ولكن لا على من أقبل يستنجده. وتوهم الملك أنه يدين آخر، لا نفسه، فأصدر حكماً شديداً على الفاعل فقال له النبي، وكان يرقب هذا الجواب: "بالصواب تكلَّمتَ أيها الملك. فدونك قول الرب سوف أنتزع المُلكَ من يَدك وأستردُّه من أبنائك، لأنك أنت الذي فعل هذا". وهكذا بلَّغ النبي الإنذار كما أراد، وفهِّم الملكَ بلباقة ما كان عليه أن يقوله، ثم عاد أدراجه ممجّداً الله.

تلك كانت إذن نفوس الأنبياء: تحبُّ الله وتعرفه وتُقبل على العذاب لأجل مشيئته. من وقف على طريقةٍ أو على علمٍ وقوفاً دقيقاً، تابعهما من كل قلبه، وبدون أي مشقة، ودلّ آخرين، بكل يقين، على الطريق أو الأسرار والمفاهيم المتصلة بفنه، وإن كان هو، في كثير من الأحيان، شاباً وبسيطاً، والآخرون متقدّمين في السنّ ومن ذوي العلم في مجالات أخرى. فالأنبياء والرسل والشهداء لم يتلقّنوا المعرفة والحكمة الإلهيّة بالسماع مثلنا، بل بذلوا دمهم ونالوا الروح، بحسب قول الأقدمين: "ابذل دمك ونل الروح". ولذلك استعاض الآباء عن الاستشهاد الحسّي باستشهاد الضمير، واستبدلوا بموت الجسد نيّة الموت، لكي يغدو الذهن أقوى من بُغيات الجسد ويملك في المسيح يسوع ربّنا، له المجد والعزَّة والإكرام والسجود، الآن ودائما. آمين، وإلى الدهور.